

جامعة جيلالي ليايس سيدي بلعباس

كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية

قسم العلوم الاجتماعية

المستوى: ماستر 1. تخصص: تنظيم و عمل. السنة الجامعية: 2021/2020.

السداسي الثاني. أ. سليمان سليمان.

نتناول في هذا المقياس الخطة المنهجية الشاملة التي تتطلبها البحوث في العلوم الاجتماعية عامة و في علم الاجتماع خاصة. على الطالب أن يعلم ، وهو مقبل على إعداد مذكرة التخرج ، أن الالتزام بالقواعد و الضوابط المنهجية إنما هو موقف مسؤول يتبناه إزاء الظاهرة المدروسة. يتحتم هذا الموقف على الطالب و على كل باحث، لأن الظواهر، في العادة، لا تريد الكشف عن حقيقتها إلا باستنطاقها في سياق منهجية صارمة. فإذا عُلم أن الظواهر الطبيعية تخادع و تبدو في وصف غير وصفها الحقيقي الواقعي ( ظلت البشرية تعتقد أن الشمس تدور حول الأرض، و هو ما يبدو في الظاهر، حتى جاء علماء الفلك و أثبتوا العكس تماما. و ما يحدث الآن في فيزياء الكم من اكتشافات صادمة خاصة ظاهرة التشابك الكمي و نتائج تجربة الشق المزدوج...)، فإن الظواهر الإنسانية و الاجتماعية أكثر خداعا و أشد تعقيدا.

من هذا المنطلق و جب على الطالب أن يكون ملما بجوانب المنهجية عموما، كما يلزمه أن يطلع على مختلف المناهج ذات الصلة بالبحوث الاجتماعية، الكمية منها و الكيفية، الاستقرائية و الاستنباطية.. في الوقت ذاته، ي جب على الطالب أن يكون على دراية ببعض التقنيات المتعلقة بجمع المعطيات الخاصة باختبار الفرضيات كتقنية

الملاحظة و الاستمارة و المقابلة و تحليل الخطاب أو المحتوى.. إضافة إلى التمرس على استخراج مختلف العينات بنوعها الاحتمالية و غير الاحتمالية.

هذا و على الطالب أن يتعلم المبادئ العامة الخاصة ببناء الإشكاليات و وضع الفرضيات. من أجل ذلك و جب عليه أن يطلع على أهم النظريات في تخصصه لكي يوظفها أو يستلهم منها، ثم يلم بوظائفها في توجيه البحوث عامة. في هذا الصدد لا يلبق بالطالب الباحث الذي يرغب في تأسيس قاعدة راسخة من المعارف البحثية الأصيلة أن يُعرض عن الإلمام و لو على وجه العموم بالمبادئ الإبستمولوجية.

فالمنهجية إزاء البحوث العلمية هي بمثابة سلوك واع و عيا مزدوجا يحيط بطبيعة و خصائص موضوع البحث من جهة، كما هو وعي و إدراك للباحث ذاته. فالعلوم الإنسانية عامة و الإجتماعية خاصة يتحد فيها شخص الباحث و موضوع البحث في بوتقة واحدة. و هذه ما يجعل العمل في هكذا علوم مشروعا محفوقا بمزلق بالغة الخطورة. فبغية تفادي هذه المحاذير و غيرها، و جب التمسك بمنهجية خاصة تتضافر فيها قواعد الإبستمولوجيا و المناهج و التقنيات و الأساليب الخبرات و الاستشارات..، للتوصل إلى نتائج تصطبغ بالصبغة العلمية.

من أجل الإلمام بما سبق ذكره فقد وضعنا خطة نتناول فيها بشيء من التفصيل مجمل الخطوات الواجب إتباعها عندما يكون الطالب الباحث أمام مشروع بحثي ما. وقد راعينا ونحن نعد محاضرات هذا المقياس، أن تكون فصولها شاملة كي تغطي كافة الجوانب الضرورية منه.

لقد وزعنا مضمون هذا المقياس على ثلاثة فصول. فكان عنوان الأول منها: **الأسس الفلسفية و المنهجية للبحث العلمي.** و فيه نلقي إطلالة على نواح إبستمولوجية و على شروط عامة يجب على الباحث أن يتحلى بها على وجه العموم. أما الفصل الثاني فقد

كان: **منهجية البحث العلمي في علم الاجتماع.** و فيه نتناول المعايير التي على أساسها يختار الطالب موضوع بحثه. كما يتناول هذا الفصل طرق و كفايات البناء النظري، إلى جانب إختيار المناهج المناسبة المتحكمة في السير المنطقي لعملية البحث. أخيرا يبحث الفصل الثالث المعنون ب: **تقنيات البحوث العلمية في علم الاجتماع،** نوعين من التقنيات يتعلق الأول منهما بالأساليب الخاصة باختيار نوع العينات، أما الثاني فيتعلق بالتقنيات الخاصة بجمع المعطيات الميدانية لأجل اختبار الفرضيات.

## 1- الأسس الفلسفية و المنهجية في البحوث العلمية.

تمهيد:

يتناول هذا المحور في جزئه الأول بعض ال وقفات الفلسفية المتعلقة بالعلوم عامة، و نقصد بذلك جملة من التنبهات الإبستمولوجية التي تخص العلوم كافة دون التفريق بين العلوم الإنسانية منها أو علوم الطبيعة. و نخصص الجزء الثاني منه للإشارة إلى بعض المبادئ المنهجية الضرورية التي ينبغي على الطالب أن يراعيها و هو يزاول بحوثه العلمية.

### **1-1: الأسس الفلسفية في البحوث العلمية.**

البحوث العلمية الجديرة بهذه الصفة، و يجب أن يلتزم أصحابها بقدر معين من المعارف و المبادئ التي تخص المعرفة العلمية ذاتها. إن الطالب على وجه الخصوص، يجب عليه أن يكون على دراية ببعض البروتوكولات ذات الأصل الفلسفي التي تحكم في عمومها السير الحثيث نحو الحقيقة، و تمنعه من الخلط بين العلم و الاعلام.

-السلطة العامة للعلوم الحديثة.

بحلول القرن السادس عشر، باتت مرحلة القرون الوسطى في نهايتها. و قد تميزت هذه الفترة بافتراضات و نظريات أقرب ما تكون إلى تخمينات و مضاربات لا يمكنها الصمود أمام التمحيص العقلي أو الواقعي. فإن وجدت اجتهادات تكتسي بعضا من المسحة العلمية، فلا بد لها من تزكية لاهوتية من الكنيسة المهيمنة وقتئذ.. لكن كلما تقدمنا في مسار عصر النهضة باتجاه عصر الأنوار و ما بعده، كلما بدأ صرح جديد من العلوم يتبلور. ذلك ما يسمى بالعلوم الحديثة في مقابل العلوم الكلاسيكية. و من أهم ما يميز هذه النوع الأول من العلوم هو أنها ذات سلطة عامة.

يقصد بخاصية السلطة العامة للعلوم الحديثة، تلك الميزة التي يجمع عليها العلماء و الباحثون و هم يحاولون الوقوف على الحقائق العلمية للظواهر و المتمثلة في جملة القناعات و التأكيدات و الإثباتات الناتجة عن الحوارات و النقاشات بين جماعة من المؤهلين العلميين في جو من الحرية التامة و المساواة و العقلانية. في هذا السياق الحدائي المتبلور، فإن كل واحد من جماعة الباحثين يسعى إلى إقناع الآخرين بدقة و صواب أطروحاته و قضاياها بالاستناد إلى العقلانية و الحجج و البراهين التي يطمئن إليها صاحب كل عقل سليم. إن الحقائق التي تنتبثق عن هذا السياق لا تفرض بالقوة و لا يمكن إجبار الآخرين باعتناق قناعات لا تُسلَّمُ بها عقولهم<sup>1</sup>.

فالسلطة العامة باعتبارها ميزة العلوم الحديثة، قد جاءت لمواجهة نوع آخر من المعارف ألا وهي معارف السلطات الخاصة. يقصد بهذه السلطات سطوة رجال الدين في أوروبا و احتكارهم لما كان يوصف طيلة القرون الوسطى بالعلم ( بلا موضوعية، و لا وضعية، و لا تجريب..). لقد كان الصدام بين الفريقين عنيفا، وظفت فيه السلطة الدينية مال الإقطاع و علم اللاهوت، و قد ذهب ضحيته علماء كبار تضيقا و قتلا بل و حتى حرقا ( كاليلي و جوردانو برونو).

<sup>1</sup> - François Dépelteau. La démarche d'une recherche en sciences humaines. Les presses de l'université Laval. 7em tirage. Canada. 2011. p. 34.

## -سلطة الحتمية في العلوم الحديثة.

ما كان للعلوم الحديثة أن تتأسس لها قواعد ثابتة و مستقرة لولا تميزها و اعتمادها على خاصية الحتمية. و هذه الأخيرة مذهب يعتبر بأنه ما من حادثة إلا و لها سبب يمكننا من أن نقف عليه انطلاقا من القوانين الكونية العامة. من أجل ذلك يتحدث الأخصائيون عما يسمى: الحتمية الآلية لارتباط ذلك بمفهوم السببية المستعملة في الآلية التقليدية للفيزياء.. في هذا السياق يرى بورديو أن الحتمية هي بمثابة مبدأ عقلي كافي.. و لا شيء مما هو كائن مجرد عن أسباب وجوده.. فههدف النشاط العلمي هو - إذن - تعقل ما هو كائن.<sup>1</sup>

فمبدأ الحتمية يسمح للباحثين و العلماء بتكوين ثقة في تكرار الظواهر المدروسة إذا توفرت لها أسبابها بدون اعتبار لزمان أو مكان. و اعتمادا على ذلك، يوفر هذا المبدأ فرصة للبحوث التجريبية بغية التأكد من العلاقات التي تربط بينها، كما يوفر إمكانية التنبؤات بحدوث الظواهر إذا ما اجتمعت لها أسبابها و توفرت شروطها. لذلك يرى البعض بأن الحتمية في العلوم الحديثة هي مذهب فلسفي (إبستمولوجي) بموجبه، كل الأحداث في الكون، وبخاصة الأفعال الإنسانية، تكون مرتبطة في ما بينها بحيث تبدو على نحو ما و ليس على نحو آخر.. و عليه فإنه - و الحالة هذه - يمكننا دائما، وفق مناهج عقلانية، أن نحسب و نتوقع تنبؤات مهما كانت بدرجة دقة حاسمة، إذا ما توفرت لنا الشروط الضرورية.<sup>2</sup>

بهذه السمة المطردة التي تتميز بها الظواهر، يمكن للباحثين أن يعمموا القوانين أو الانتظامات التي يتوصلون إليها. ثم إن الحتمية التي تحكم الظواهر تسمح للعلماء، بعد ذلك ، أن يبسطوا ما يسميه الأخصائيون ب: إرادة التحكم ( *volonté de pouvoir* ).

<sup>1</sup> - Yves Alpe et al. Lexique de la sociologie.4eme ed. Dalloz . Paris.2013.p.95.

<sup>2</sup> - Gilles Ferréol et al. Dictionnaire de sociologie.4eme ed. Edition Mehdi. Tizi-ouzou. 2013.p.72.

ذلك بأن الاشتغال بالعلم لا يكون من أجل العلم و حسب، و إنما يكون أيضا قصد التحكم في الظواهر ما أمكن أو على الأقل مراقبتها بغية تجنب أضرارها أو الاستفادة من مزاياها.. من أجل ذلك يقول هؤلاء الأخصائيون أنفسهم: عَلِمَ أَيُّ تَنْبَأً، و تَنْبَأُ أَيُّ تَحَكَّمَ ( savoir c'est prévoir et prévoir c'est pouvoir ). تجدر الإشارة في الأخير إلى أن سمة الحتمية المميزة للظواهر الطبيعية و الإنسانية على حد سواء، تساعد على إقرار مبدئ الموضوعية الضروري لشمولية العلوم.

## 1-2: المساعي البحثية الكبرى في العلوم الحديثة:

نتحدث في هذا العنصر عن المناهج الكبرى التي أقرتها الفلسفة عامة و الإبستمولوجيا خاصة، و التي تكون موردا أو مصدرا موثوقا يُنتج المعرفة و العلم على وجه الخصوص. و نعني بهذه المناهج: الاستقراء، الاستنباط و المنهج الفرضي الإستنتاجي.

- المنهج (أو المسعى) الاستقرائي.

المسعى الاستقرائي هو ذلك المنهج أو الخطة التي يعتمدها الباحثون عند التأسيس للعلم. تقضي هذه الخطة أن يتمكن الباحث من بلوغ المعارف العلمية المتعلقة بالواقع المدروس عن طريق العمل الامبريقي المؤسس بدوره على ما يتلقاه هذا الباحث من حواسه. إن الفكرة الأساسية للمنهج الاستقرائي هي استنتاج حقائق عامة انطلاقا من تجارب خاصة مضبوطة و منتظمة. يؤكد هذا المنهج على المعاينة الميدانية و الملاحظة الشاملة لكل الوقائع الممكنة باستعمال كافة الحواس الخمسة من أجل التوصل في النهاية إلى استنتاجات عامة سواء أكانت بلورة مفاهيم أو تحديد فرضيات أو صياغة نظريات أو قوانين..

إن هذه المفاهيم و الفرضيات أو النظريات..، لا تأتي من خيال الباحث و لا من مضارباته الفكرية، و إنما يصدر ذلك حصرا من التجارب و الملاحظات المستقيضة التي

تؤكد الشيء نفسه. يرى القائلون بالمسعى الاستقرائي بأنه كلما زاد عدد التجارب أو المشاهدات و مع ذلك تصمد الاستنتاجات، كلما كنا بصدد الاقتراب من تحقيق معرفة علمية وشيكة. لذلك يُشترط في هذا النوع من المناهج الإكثار من الملاحظات، ولا ينبغي للباحث الاكتفاء ببضعة منها و التسرع فيها لإصدار النتائج.

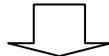
يمثل أخصائيو المنهجية حين يريدون توضيح هذا الشرط، بقولهم أن الباحث إذا أراد أن يعرف كل ما يتعلق بالغريان و أراد أن ينتهج في ذلك المسعى الاستقرائي، فإنه يكون مضطرا إلى إجراء ملاحظات واسعة تخص هذه الطيور السوداء. فإن سمحت له الظروف، فإنه يقوم بملاحظة جميع هذه الطيور السوداء، و إلا فلا أقل من أن يلاحظ العدد الأكبر الممكن منها. و لا ينبغي أن يفوته تسجيل كل الملاحظات ذات الصلة بموضوع بحثه، مركزا في الوقت نفسه على الملحوظات المتكررة أو المتشابهة أو التقاطعات أو مؤشرات السببية ( هذه الطيور سوداء، لها جناحان، تطير في الهواء، لها قائمتان، منقار..). بعد ملاحظات مستفيضة، يمكن للباحث أن يخلص إلى استنتاجات عامة التي تتحول إلى معرفة إمبريقية مثل: الغريان سود، الغريان تطير، الغريان قمامة...<sup>1</sup>

### المنهج الاستقرائي

( الذي ساد بين الامبريقيين الإنجليز )

الباحث يطرح سؤالاً

(لماذا بعض الطيور تطير؟)

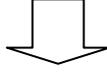


دون أفكار مسبقة، يشرع في ملاحظات متعددة لحالات خاصة

<sup>1</sup> - François Dépelteau. Op. cit. p.56.

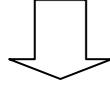
(مئات، بل حتى آلاف من الحيوانات الطائرة و غير الطائرة تخضع للملاحظة

المنتظمة)



بسبب كثرة الملاحظات، تتكرس تكرارات و انتظامات في فكر الباحث- الملاحظ

(الحيوانات ذات الأجنحة تطير، و الأخرى لا تطير)



تشكيل بيانات عامة (فرضيات، نظريات، قوانين..)

(الأجنحة تسمح للحيوانات بطيران)

• المنهج (أو المسعى) الاستنباطي:

هو ذلك المنهج الذي يشك أصحابه في ما تمدنا به حواسنا الخمسة عما يجري في العالم الخارجي. و يبرر القائلون بهذا المنهج موقفهم أن التجربة قد أثبتت أن تلك الحواس نشعرنا أحيانا بوقائع لا حقيقة لها. ويمثلون لذلك بما يشاهده الملاحظ أثناء حدوث ظاهرة السراب، أو أن يسمع الإنسان صوتا فينسبه لشخص ثم يظهر أنه لآخر..

استنادا على ما تقدم، يعرفه البعض بأنه عملية تشكيل قضايا معينة اعتمادا على مسلمات أو فرضيات، في إطار من الاستدلال المنطقي. فمثلا، على أساس مسلمات الفردانية المنهجية ( التي تُعد بمثابة بديهيات عقلية لا حسية)، يمكن استنتاج تفسيرات لبعض الخيارات أو بعض الخيارات الانتخابية.<sup>1</sup>

<sup>1</sup> -Yves Alpe. Op.cit.p.84.

يعتبر روني ديكارت (1596-1650) المؤسس الفعلي لهذا المنهج. حيث يرى بأنه من الواجب الشك فيما نسمع و نرى و نشم ونلمس و نتذوق. بالمقابل، يوجد لدينا كفاءة استنتاجية عالية الموثوقية تتولد عن العقل. من أجل هذا المعنى قال عبارته المشهورة: " أنا أفكر إذن فأنا موجود". فحسب هذا المسعى الديكارتي، فإن التأكد من وجودنا و ما يتعلق به منوط بالفكر وحده. فالفكر هو الجدير بالثقة و هو المؤهل ليعطينا صورة صحيحة عما يجري في واقعنا.

ففي شروحاته للمنهج الاستنباطي، يرى ديكارت أن البداية تكون من الحدس أو البديهية وهي عبارة عن مسلمة معرفية لا تقبل الدحض و في هذا يقول: " لا أقصد بالحدس تلك الثقة المترددة الحائرة التي تمدنا بها الحواس أو الحكم الموهوم لخيال رديء التركيب، ولكن نقصد به ذلك المفهوم الذي يشكله الذكاء (العقل) الخالص و المنتبه في يسر تام و سمو بما لا يدع مجالاً للشك مطلقاً فيما نفهمه..". " ف" أنا أفكر" مسلمة أو حدس لأنها معرفة مؤكدة و غير قابلة للنقاش. ذلك لأنني إذا كنت أشك في أنني أفكر، فلأنني أفكر".<sup>1</sup>

فاعتماداً على الحدس الذي ما هو إلى مقدمة، ي مكننا استنتاج تأكيدات: أنا أفكر ( حدس) أستنتج منها: أنا موجود ( النتيجة). فأنا، هنا، انطلقت من مقدمة موثوق بها و وصلت إلى نتيجة لا تقبل الدحض. هذه الدرجة من الوثوقية لا يمكننا الحصول عليها من المسعى الاستقرائي.

### 1 3: الأسس المنهجية في البحث العلمي.

يرى علماء المنهجية أن الصفة العلمية التي ينشدها الباحثون، لا ترجع بالأساس إلى مواضيع المطروقة مهما كانت قيمتها و جديتها، بقدر ما تعود إلى الصرامة المنهجية المسلطة على تلك المواضيع. هكذا يغدو العلم مرتبطاً بجملة من البروتوكولات التي

<sup>1</sup> - François Dépelteau, Op.cit , p.61.

ما هي إلا مجموعة من الخطوات المدروسة و التي من شأنها إحكام العقل و عصمته من الانزلاقات الاعلمية. فما هي أهم تلك الأسس التي يجب على كل باحث أن يأخذها بعن الاعتبار؟

### -التحلي بالموضوعية :

تعتبر الموضوعية في إقامة صرح العلوم العنصر الأكثر أهمية و الأس الذي يبني عليه هذا الصرح. ففي التقليد الوضعي، فإن الموضوعية تركز على نبذ الأفكار القبلية و الانقياد لحكم الوقائع وحده. <sup>1</sup> فالموضوعية في العلوم هي مقدره الباحث على الفصل بين مشاعره و ميولاته و كل ما من شأنه أن يضيء الطابع الشخصي العاطفي على بحثه، و بين الوقائع المدروسة كما هي في الواقع. إن هذا الموقف يتباين تباينا كبيرا بين ما إذا كنا بصدد دراسة العلوم الإنسانية الاجتماعية أو كنا بصدد دراسة علوم الطبيعة. فالالتزام بالموضوعية في الصنف الأول متاح و ميسور، بينما في النوع الثاني صعب و خفي، ذلك لأن الباحث في هذا الصنف من العلوم يعتبر في الوقت ذاته مبحثا.

### -التحلي بالشك الإيجابي:

إن الشك نوعان: سلبي و إيجابي. فالشك السلبي هو تلك الريبة التي تسيطر على الباحث و تجعله لا يطمئن لأي جهود أو افتراضات أو نتائج مهما كانت درجة علميتها. بتالي يصير محروما من ذلك التراكم العلمي و من الاستفادة منه، فتضيق آفاقه و ينحصر مجال البحث أمامه. أما الشك الإيجابي فهو عدم التسليم الأعمى لما تعرضه علينا خبراتنا و تجاربنا اليومية من حس مشترك أو أحكام مسبقة و التعامل مع ذلك كله بفكر ناقد و متيقظ.

<sup>1</sup> - Alain Beitone et al ,science sociales, Paris, 4<sup>eme</sup>ed,2004,p.13

في هذا الصدد يرى موريس أنجرس أن الباحث يجب عليه أن يعمل دائما على أن يكون متحررا فكريا، و هذا التحرر لا يمكن أن يتجسد سوى في المساءلات التي تتأسس هي الأخرى على الشك الإيجابي. بمعنى آخر هو الاعتراف بما أثبتته العلم وفق المناهج المعتمدة لدى المجتمع العلمي، لكن في الوقت ذاته لا يكون لزاما على الباحث أن يأخذ تلك الإثباتات على أنها نهائية و غير قابلة للنقد<sup>1</sup>. إن الحقائق العلمية لا تتصف بالضرورة بالديمومة بل تلاحق دائما بالتساؤلات من أجل تخطئتها أو تعزيزها بغيره السير بها نحو التدقيق، و هذا ما عمل عليه كارل بوبر في مواقفه الإستمولوجية إذ يرى : « La science est le devenir de la science »

بمعنى أنه لا يمكن للعلم أن يصل يوما إلى حقائق منتهية و نهائية لا مجال لمناقشتها.

#### - الإحاطة بالفروقات بين العلوم الاجتماعية و علوم الطبيعة :

من خلال تتبع حركة العلم، يبدو أن أول ما أثار حفيظة الإنسان عامة و العلماء خاصة هي الظواهر الطبيعية. يعود ذلك إلى ما كانت تشكله تلك الأحداث من استغراب و انبهار من جهة و ضغط و تهديد مباشر للحياة الإنسانية من جهة أخرى. بعد أن ترسخت قواعدها و مناهجها و أسفرت عن تراكم علمي كبير و تعقدت حياة الأمم و الشعوب، دُفع العلماء و الباحثون إلى التفكير في ظواهر من جنس آخر هي العلوم الاجتماعية.

لقد أسست علوم الطبيعة عالما معرفيا غاية في الانضباط و المثالية. يتعلق هذا النوع من المعارف بالمواضيع التي لا يد للإنسان فيها من مثل: الفيزياء و الكيمياء

<sup>1</sup> -Maurice Angrers. Initiation pratique a la méthodologie des sciences humaines. Casbah edition.Alger.2015. p :27

و البيولوجيا.. تُسمى أحيانا علوم الطبيعة و أحيانا أخرى بالعلوم الدقيقة أو الصلبة أو الخالصة. هذه العلوم تسهل فيها المواقف الموضوعية اللازمة للنتائج الدقيقة البانية لصرح العلم. و عموما تتعلق هذه العلوم بما هو مادي. من جهة أخرى أُعْتَبِرَ الإنسان و ما يُحدثه من ظواهر، مواضيع لدراسات لها طابع علمي. الهدف المتوخى من ذلك هو معرفة و فهم الأشخاص و ما يقومون به من أفعال. مما ينبغي الإشارة إليه هنا هو أن العلوم الإنسانية و الاجتماعية عموما لها نمط سير خاص بها . فخلافا لظواهر الطبيعة الثابتة و التي لا تتأثر بالزمان و المكان، فإن العلوم الإنسانية و الاجتماعية تتعامل مع موجود يفكر و يعي و يتحايل و قد يخادع. ثم، عند دراسة هذا الإنسان يجب استئذانه كما يجب أن يقبل التقنية المستعملة إزاءه<sup>1</sup>. من أجل هذه الصعاب و غيرها كثير، فإن التأسيس للعلوم الإنسانية يُلاقى لحد الآن عوائق جمة تحول دون بلورة نظريات تحوز قبول المجتمعات العلمية قاطبة كما هو الحال بالنسبة علوم الطبيعة.

## 2- منهجية البحث العلمي في علم الاجتماع:

تمهيد:

نخصص هذا المحور لعرض مختلف المراحل المنهجية التي تتعلق ببناء موضوعات البحوث العلمية ( construction de l'objet de recherche ). و ذلك بدءا باننقاء تلك المواضيع و المعايير المعتمدة في ذلك وصولا إلى عرض للمناهج المستعملة، مروراً بالتنظير للمواضيع المطروقة.

### 2-1: اختيار موضوعات البحث و طريقة تدقيقها:

<sup>1</sup> -Ibid. p.49.

عادة ما يقع الطلبة، بل حتى الباحثون المبتدئون، في حيرة مقلقة عند اعتزامهم اختيار مواضيع للبحث. و منشأ ذلك بحسب تجربتنا المتواضعة هو أولاً: قلة المطالعة لدى الطلبة. إن الإقبال على قراءة الكتب المتخصصة عامة و الاطلاع على التقارير و المقالات العلمية خاصة، من شأنها شحذ الفكر و رفع الهمة عند الطالب. ثانياً: إن مواصلة هذا النوع من القراءات ينتج عنه تكون ملكة الملاحظة المتعلقة بالظواهر التي لا يراها إلا المدمنون على هذا الفعل الضروري. يفترض في المتخصص في علم الاجتماع أن يكون قادراً و متمكناً من الملاحظة الدقيقة بل متمكناً من رؤية ما لا يراه الآخرون. إن المزوجة بين القراءات الأدبية و الملاحظات الميدانية يؤسس عند الطالب ميزة التفتح الذهني و اليقظة اللازمين لاكتشاف ظواهر اجتماعية تخفى على غير المتخصصين.<sup>1</sup>

#### - معايير اختيار المواضيع في البحوث العلمية:

ينبغي على الطالب في علم الاجتماع و هو يتلمس طريقه للاهتداء إلى ظاهرة يريد دراستها، أن يحترم بعض الشروط الواجبة في ذلك. من جملة تلك الشروط أن تكون الظاهرة فعلاً ظاهرة بمعنى أن تكون حازت شرط الانتشار الذي يحولها إلى صفة الظاهرة، كما يجب فيها أن تكون حائزة على صفة الإكراه. بمعنى آخر يجب أن تكون بصدد دراسة موضع حقيقي و ليس متوهماً أو خيالياً. ثم يجب في الظاهرة أن تكون متصفة بالميزة الاجتماعية. قد يبدو هذا بديهياً لبعض الطلبة و لا يحتاج التنبيه عليه، غير أنه قد عُثر لدى عدد من الطلبة على أنهم يتناولون ظواهر من صميم اختصاص علم النفس أو علم السياسية أو علم الاقتصاد.. يمكننا أن ننبه هنا أنه بمقدورنا أن نختار ظاهرة ذات أصل نفسي مثلاً لكنها تكون في الوقت ذاته قد أخذت بعداً اجتماعياً. ذلك ما فعله مثلاً دوركايم في دراسته للانتحار، فالإقدام على عملية مثل هذه عند الأفراد تكون

<sup>1</sup>- يُراجع في ذلك كتاب: محمد زيان عمر. البحث العلمي مناهجه و تقنياته. ديوان المطبوعات الجامعية. ط. 04. الجزائر. 1983. ص. 59.

ببواعث نفسية ابتداء، لكنها إذا حازت صفة الانتشار و الإكراه صارت ظاهرة اجتماعية و حُقَّ عندئذ لعلم الاجتماع تناولها.

من جهة أخرى، يُشترط في الظاهرة المختارة من قبل الطلبة أن تكون موافقة لتخصصهم، إذ لا يُعقل في حق المتخصص في علم اجتماع تنظيم و عمل مثلا، أن يختار ظاهرة من مجال علم اجتماع السياسي أو علم اجتماع المعرفة و هكذا.. ذلك أن الطالب في التخصص الأول يكون قد حصل على تراكم معرفي متعلق بمجاله (تاريخ نشوء التخصص، نظريات، مفاهيم، تقنيات..)، ليس بالضرورة أن تتناسب مع تخصص آخر ولو كانا متقاربين. في هذا الصدد ذاته يجب على الطالب العلم بأن التزامه بتخصصه تستدعيه ضرورات أخرى ليس أقلها أن الواقع الاجتماعي ما ينفك يوميا من أن تتجدد أحداثه ووقائعه بزخم مطرد و وتيرة متصاعدة، و ذلك على صعيد الحياة الاجتماعية بجميع أبعادها. من أجل ذلك و يجب على كل صاحب تخصص أن يتكفل برصد ما يُستجد من وقائع و أحداث في ميدان اختصاصه، و لا بأس بعد ذلك بأن ينسق مع العلوم الأخرى المجاورة.

من ضمن المعايير المطلوبة أيضا في اختيار المواضيع عامة، تَعَلُّقُ رغبة الطالب بها. إن الاهتمام بظاهرة ما لأسباب ذاتية (علاقة علمية عاطفية خاصة تربط بين الطالب أو الباحث و بحثه) و لأسباب أخرى موضوعية (علاقة واقعية تفرضها ظروف مستقلة عن الباحث أو الطالب)، من شأنه أن يُضفي طابعا من الجدية و التحفيز و التطلع لمآلات البحث و مساراته و نتائجه. هذا المعيار عادة ما يتجاهله الطلبة، إذ كثيرا ما نجد عددا منهم يطلب المساعدة من الأساتذة المشرفين في العثور على مواضيع بحث التخرج. فالطالب الجاد في عمله لا ينتظر آخر الآجال حتى يستيقظ من غفلته باحثا عن موضوع يمرره كيفما اتفق. إن المواضيع المختارة الجادة و التي تُعقد على البحث فيها آمال مقبولة

على الأقل، هي تلك التي يكون أصحابها يعيشون أشواق البحث فيها كما تكون في الآن ذاته حاملة لحيرة علمية و معرفية تحفزهم لكشف خلفياتها و تجلية خباياها.

#### - مصادر اختيار المواضيع.

بداية يجب التنبيه على بعض الحمولات الدلالية لبض الألفاظ المستخدمة في هذا الباب و التي تشكل عادة تشوشا و إرباكا لدى كثير من الطلبة. نقصد بذلك لفظ: موضوع، عنوان، ميدان اهتمام..

إن لفظ "موضوع" باللغة العربية يمكن أن يفيد معنيين باللغة الفرنسية: "Thème" أو "Objet". فالظاهرة التي يبحث فيها الطلب أو الباحث عموما تُسمى موضوعا بمعنى "Thème" و في الوقت عينه هي ميدان اهتمامه على وجه العموم. أما "Objet" الذي يعني الموضوع أيضا باللغة العربية، فيُقصد به باللغة الفرنسية الموضوع بعد أن يكون قد بني بناء نظريا و ميدانيا متكاملا.<sup>1</sup>

يُعدّد موريس أنجرس في كتابه المشار إليه أعلاه، جملة من المصادر التي يمكن أن تكون ميدان إلهام لمواضيع البحوث. في هذا الصدد يشير إلى الخبرات الحياتية. حيث

---

<sup>1</sup>- يُنظر في ذلك مثلا: سعيد سبعون و حفصة جرادى. الدليل المنهجي في إعداد المذكرات و الرسائل الجامعية في عام الاجتماع. الجزائر. دار القصة للنشر. 2012. ص.5.

تكون مرتبطة بالخبرة داخل العائلة أو المدرسة أو الشغل أو مكان السكنى أو متعلقة بالأفراد الذين نخالطهم أو الأحداث التي مرت علينا و هكذا. كل هذه المصادر، سواء أكانت فرادى أو مجتمعة، يمكننا الاستلهاً منها بُغية بلورة موضوع بحث جاد و ممتع. من جهة ثانية، فإن الحرص على أن يكون البحث مفيداً، سبيل آخر يُحفز على إيجاد مواضيع ذات قيمة. لأجل ذلك تلجأ كثير من المؤسسات الخدمائية أو الإنتاجية لطلب الخبرة العلمية بهدف معرفة خصائص و مميزات زبائننا، أو تريد الوقوف على نمط اشتغالها و تحليله. و قد توجد جماعة محلية تخطط لتفحص و تقصي جزءاً من تاريخها بطريقة علمية و منهجية. فالمواضيع المستقاة من هكذا مصادر تدخل ضمن ما يسمى بـ "الطلب الخارجي". فلاطلاع على مثل هذه المجريات سيوفر فرصة سانحة لطلبي المواضيع البحثية ذات القيمة العلمية و العملية، و بإمكانه أن يبعث في نفسية الباحث الجدية في العمل ما دامت نتائجه منتظرة من حياة ذات مكانة اجتماعية أو اقتصادية.

يمكن لحس الباحث المتمسك بحدّة الملاحظة الموجهة للأحداث اليومية، أن يكون مصدراً أيضاً، لاكتشاف مواضيع ذات قيمة علمية بالغة. في هذا الصدد يمكن للطالب أن يتساءل عن بعض السلوكيات دون غيرها أو عن بعض المواقف دون أخرى أو أن يُسائل نفسه عن خلفيات تلك السلوكيات و المواقف، بمعنى آخر أنه يبحث في المخفي أو ما يسمى بالمسكوت عنه (Le caché ou Le non dit). لماذا يتواجد في بعض التخصصات طالبات أكثر من الطلاب وفي أخرى العكس؟ لماذا نلاحظ في بعض العلوم نجابةً عند الإناث لا نعثر عليها عند الذكور؟ ما هي سبل تفشي موضة الألبسة عند كل من الشبان و الشابّات؟ هل يوجد لدينا مجتمع مدني؟ و هل هو يؤدي وظيفته المنوطة به؟ و بحسب أية معايير؟ و هكذا..

مصدر آخر يتمثل في الحوارات و النقاشات بين المهتمين و التي نحضرها أو نتابعها في وسائل الإعلام المختلفة أو ما يُكتب في المجلات و الجرائد.. كل ذلك إذا ما أولاه الطالب العناية اللازمة، فقد يكون مصدرا مهما تتكشف لنا منه مواضيع غاية في الأهمية قد لا تخطر ببال من يعرض عن هذه المصادر .

مصدر آخر يهم للطالب الراغب في العثور على مواضيع قيمة، إنها الدراسات السابقة. إنها مَعِينٌ ثري، إذ وعلى الرغم من أن هذه الدراسات عادة ما تتناول ظاهرة واحدة إلا أن البحث فيها و تحليلها، عادة ما يثير مواضيع على الهامش لا تكون من صميم اهتمام صاحب البحث لكن يقتنصها من يتابع الرسائل و الأطروحات و المقالات العلمية المنشورة. هذه المواضيع عادة ما يوصي علماء المنهجية بإدراجها و الإشارة إليها في خواتم البحوث تحت عنصر ما يسمى ب: امتدادات البحث ( prolongement de recherche).<sup>1</sup>

مهما يكن من أمر مصدر استقاء مواضيع البحث، فإن التركيز يجب أن ينصب بعناية كبيرة على علاقة الاهتمام و القيمة التي تربط بين الباحث و الظاهرة المبحوثة. فهذه العلاقة هي ما يجعل صاحب الموضوع يتحفز و يتشوق لمعرفة الجديد و المزيد بخصوص موضوعه.

### - سؤال الانطلاق و تحديد وجهة البحث:

بعد أن مر الطالب عبر مرحلة اختيار الموضوع مستندا إلى المصادر المتقدمة، و بعد أن توفرت له الرغبة العلمية في هذا البحث بالذات و بات ميدان اهتمامه واضحا في عمومها، وجب عليه الآن أن يتحول إلى مرحلة تالية متممة لما قبلها و ممهدة لما بعدها.

<sup>1</sup> - Voir : Maurice Angers. Op cit. p.108.

الهدف من هذه الخطوة هو تدقيق البحث

و توجيهه الوجهة التي يرغب الطالب تبنيها. لا يتأتى ذلك إلا من خلال أعمال الوظيفة المنهجية لما يسمى ب "سؤال الانطلاق". فما سؤال الانطلاق؟ و ما هي وظيفته؟

يجب على الطالب أن يعلم بأن المواضيع المختارة لأول وهلة تكون دائما واسعة و متعددة الزوايا و الجوانب. لهذا السبب لا يمكن لأي باحث مهما كان أن يخوض غمار البحث فيها و هي على هذا النحو وبهذا الشكل. من أجل ذلك و جب على الباحثين هاهنا أن يعملوا بوصايا المنهجيين ألا و هي في هذا الصدد بالذات مقارنة تلك المواضيع الواسعة و المتشعبة بسؤال انطلاق.

من المهام الوظيفية المنهجية لسؤال الانطلاق أنه يحدد بدقة الزاوية التي يريد الباحث أو الطلب تناول موضوعه منها. فإذا تمكن من ذلك حقيقة، أمكنه تاليا و بطريقة آلية إلغاء الجوانب الأخرى للموضوع نفسه. بهذه العملية التي تبدو في ظاهرها سهلة ميسورة (و ليس الأمر كما يبدو بتاتا)، يكون الطالب أو الباحث قد أنجز مَهَامًا ثلاثة أساسية على الأقل:

الأولى منها: بسؤال الانطلاق يكون الطالب قد انتقى وجها واحدا من الموضوع (الظاهرة المدروسة)، و تخلص بالتالي من الأوجه الأخرى التي يزخر بها الموضوع، و ذلك بالذات ما يتناسب مع قدراته و طاقاته العلمية الموضوعية و الواقعية.

الثانية: باختيار الطالب زاوية واحدة و التخلي عن باقي الزوايا المحتملة الأخرى، يكون بهذا المسلك قد وفر على نفسه بعثرة جهوده في جوانب لا تهمه أو هو غير مطالب بها. بالتالي فإن الجهود التي سوف يوظفها في ذلك الجانب المحدد، بإمكانه أن يسيطر بها على موضوعه و يتحكم فيه، فتكون النتائج العلمية أبلغ دقة و أثبت مصداقية.

الثالثة: إن طرح سؤال الانطلاق سوف يتطلب إجابة ما، و إذا فقواعد المنهجية تقتضي أن تكون تلك الإجابة مزدوجة:

- البحث المنهجي عن الإجابة في الأدبيات و الكتابات المختلفة بخصوص الموضوع و قد تسمى القراءات حول الموضوع.

- البحث المنهجي عن الإجابة في الميدان أي محاولة التقصي عن سؤال الانطلاق ممن عايشوا الظاهرة أو لهم علاقة بها مباشرة أو غير مباشرة.

لكن كيف نطرح سؤال الانطلاق؟ و ما هي الشروط الواجب توفرها فيه؟

علمنا أن الطالب عندما يختار موضوعا ما بحسب المحددات السالفة الذكر، يجب عليه منهجيا أن يختار جانبا من جوانبه تدقيقا لعملية البحث و احتراماً لقدراته و طاقاته المتاحة.. لكن السؤال الوجيه الذي يفرض نفسه في هذا الموقف هو : كيف نحصل على هذا السؤال؟

تقول الخبرة المنهجية في هذا المجال أنه يجب على الطالب أو الباحث أن يطرح على نفسه تساءل مفاده: ماذا أريد أن أعرف أو أدرس بالضبط من هذا الموضوع؟ ثم أعطي نفسي الوقت اللازم و الكافي لكي أتدبر هذا السؤال بتمعن و تدبر. يجب أن تُولى العناية الفائقة لهذا السؤال لأنه المنطلق فيجب أن يكون دقيقا و متينا. فأقول مثلا: أريد أن أدرس كذا و كذا عند كذا و كذا..

قبل أن نواصل في شروط سؤال الانطلاق فنتشعب بنا المعلومات، تعالوا نضرب مثلا واقعيا نطبق فيه ما رأيناه متعلقا بهذا السؤال الجوهري.

أحد الطلبة مثلا متخصص في دراسة علم اجتماع تنظيم و عمل. منذ أن أحب هذا الفرع من علم الاجتماع العام، تعلق بظاهرة محددة تسود داخل المؤسسات سواء الخدماتية

منها أو الصناعية الإنتاجية. كان هذا الطالب مشغولا دوما بطبيعة و واقع و طريقة إقامة العلاقات التي ينسجها العمال داخل مؤسساتهم. فما موضوع هذا الطالب (son thème)؟ بمعنى كيف يصيغ هذا الموضوع و يوضحه في عبارات واضحة و مفهومة و دالة؟ ثم كيف يفعل من أجل تجلية ما يريده بالضبط من هذا الموضوع؟ أي كيف ينشئ سؤال الانطلاق المخصص لذلك الغرض؟

يكون موضوع هذا الطالب مثلا على النحو التالي: **العلاقات العمالية داخلا المؤسسات الخدمائية**. ما معنى هذا الكلام؟ معناه أن الطالب هذا مهتم على وجه العموم بظاهرة العلاقات السائدة بين العمال. لقد كانت و ما زالت هذه العلاقات تطرح حيرة و قلقا علميا بالنسبة له و يجد نفسه مشدودا بطريقة أو بأخرى إلى معرفة ما يعتمل في تضاعيف تلك العلاقات ما يحفره و يشوقه للبحث في هذا الميدان.

بعد أن حدد الطالب موضوع بحثه و إن على وجه العموم، و صار ميدان اهتمامه واضحا، و جب عليه الآن أن ينتقل إلى مرحلة تحديد و تدقيق ما يريده بحثه و دراسته بالضبط من هذا الموضوع. من أجل تحقيق ذلك لا بد من تفعيل آلية منهجية وهي ببساطة سؤال الانطلاق. لقد علمنا سابقا أن هذا السؤال يتطلب تفكيراً مركزاً و مدققاً يتمحور حول ماذا يريد الباحث أو الطالب من هذا الموضوع؟ بعد تفكير رصين و متأن، جاء هذا السؤال المنتظر على النحو التالي: **كيف تتشكل العلاقات المهنية بين العمال داخل المؤسسة (الخدمائية أو الصناعية)؟**

ينبغي أن نشير إلى أن بساطة هذا السؤال لا تهمنا إطلاقاً و لا تزعجنا، ذلك لأنه سؤال أولي بداية ثم إنه سوف يتعرض لطفرات تطويرية مع التقدم في البحث. إن دور هذا السؤال في الوقت الراهن هو تلخيص ما نريد ترشيحه للبحث و الدراسة من جهة، ثم إن

هذا السؤال- كما يقول علماء المنهجية- ما هو إلا الخيط الموجه إلى الميدان ( Fil conducteur). بمعنى أن هذا السؤال هو الذي نعتنقه في استطلاعاتنا الميدانية الأولية حول الموضوع.

لكن قبل المواصلة في خطة إجراء البحث، لا بد من الوقوف عند بعض الشروط الواجب توفرها في هذا السؤال. يجب في هذا السؤال شروط ثلاثة و هي على النحو التالي:

#### • شرط الوضوح:

يشترط في هذا السؤال الهام و المصيري أن يكون واضحاً. يجب على الطالب ألا يستسهل أو يستخف بهذا الشرط لأن عواقب ذلك سوف تكون وخيمة على جميع مستويات البحث. كما يجب على الطلب أن يَعْلَمَ بالتزام كبار الباحثين العالميين بهذه الشروط ذاتها(منهم على سبيل الذكر لا الحصر: ألان توران، رايمون بودون، بيار بورديو، ألان دربال...).

يتعلق شرط الوضوح عادة في هذا المستوى بأن يكون السؤال دقيقاً من جهة و وجيزاً من جهة ثانية. فما المقصود بالوضوح؟

يُقصد بالوضوح أن تكون ألفاظ السؤال دالة على معنا واحد و وحيد(Univoque)، بحيث لو طُرِحَ على مجموعة من الناس لفهموا منه المعنى ذاته. لذا ينصح علماء المنهجية بإخضاع هذا السؤال للفحص و التجريب أو إلى ما يسمى بالتحكيم، أي قراءته من قبل آخرين حتى نطلع على آرائهم

فيه، لأنه من الممكن جدا أن نتوهم نحن (واضعيه) وضوحه  
و يكون في واقع الأمر غير ذلك تماما.

من أجل توضيح ذلك، تعالوا لنطرح سؤالا يبدو واضحا لأول وهلة ثم عند التدقيق فيه  
يظهر غموضه.

**ما هو أثر التحولات الناتجة عن تهيئة الفضاء الحضري على حياة السكان؟** هذا  
السؤال يبدو وجيزا، لكن هل هو واضح بما يكفي؟<sup>1</sup>

إذا تأملنا الألفاظ المستعملة ثم حاولنا فهم المعنى الإجمالي، يتضح أن غموضا كبيرا  
يكتنف هذا السؤال. يكمن هذا الغموض في مستويين على الأقل: على مستوى لفظ  
"التحولات". فأى نوع من التحولات يقصد صاحب السؤال؟ هل هي تحولات اجتماعية أم  
اقتصادية أم سياسية..؟ ثم على مستوى عبارة "حياة السكان". فأى مجال من مجالات  
الحياة يقصد؟ هل هي الحياة العائلية مثلا أم هي الحياة الصحية، الحياة النفسية،  
الثقافية..؟ إذا، فالسؤال لا يستجيب لشرط الوضوح، فهو بالتالي غير واضح و غير  
مناسب.

و الآن، لنُدخلَ عليه بعض التعديلات التي من شأنها أن تزيل عنه ذلك الغموض و  
تُكسبه صفة الوضوح المطلوبة في سؤال الانطلاق: **ما هو الأثر الاجتماعي لعملية  
تهيئة الحضرية على الحياة الأسرية؟**

بهذا التحوير البسيط يبدو أن السؤال قد استعاد وضوحه، و أصبحنا نفهم بأن الأثر  
المراد معرفته هو الأثر الاجتماعي وحده لا غير، الذي يخص الحياة الأسرية و حسب.

• شرط قابلية الإنجاز:

<sup>1</sup> - Raymond Quivy , Luc Van Compenhoudt. Manuel de recherche en sciences sociales. Paris.DUNOD.  
3<sup>eme</sup>ed.2006. p.28.

يتمحور شرط قابلية الانجاز حول مدى واقعية السؤال و إمكانية البحث فيه أدبيا و ميدانيا. بمعنى هل يمكن للباحث أن يتناول هذا السؤال في حدود إمكانياته الزمنية و المادية؟ من أجل توضيح ذلك نورد مثلا ثم نعلق عليه:

هل أن رؤساء الشركات المنتجة للنفط في الوطن العربي يتصورون خطة موحدة للحفاظ على استقرار السوق؟(المبالغة في هذا السؤال واضحة و ذلك لدواعي بيداغوجية و إلا فهناك أمثلة أقل من ذلك مبالغة و هي متداولة بين الطلبة و حتى الباحثين المبتدئين)

هذا السؤال لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يتناوله حتى فريق من الباحثين فضلا أن يتحمل ثقْلهُ باحث بمفرده. إن مثل هذه المواضيع الضخمة لا يمكن أن تباشرها سوى مراكز بحث مموله و منظمة جيدا، وتوظف أعدادا كافية من الباحثين المتمرسين. من أجل ذلك فإن هذا السؤال لا يتوفر فيه شرط قابلية الإنجاز، بمعنى الباحث المنفرد غير الممول و المنظم بشكل كاف لا يمكنه خوض غماره.

#### • شرط الوجاهة:

نقصد بالوجاهة هنا، تناسب هدف السؤال مع مقتضيات الطرح العلمي. إذ من المعلوم أن العلم لا يقبل الاستناد على الأمنيات أو الأذواق أو العواطف عموما. فالعلم لا يبحث قي ما ينبغي أن يكون لكنه يبحث في ما هو كائن بالفعل، بمعنى أن العلم موضوعي و ليس معياري. و الآن لنضرب مثلا يوضح مضامين هذه الشرط:

هل تُعتبر طريقة فرض الضرائب الجاري بها العمل في بلادنا عادلة اجتماعيا؟<sup>1</sup>

<sup>1</sup> - Ibid. p.30.

هذا السؤال ليس من أهدافه دراسة و تحليل طرق اشتغال النظام الضريبي أو أنه يُعنى بالآثار الناتجة عن طبيعة تَمَثُّله لدى الناس أو طرق تطبيقه بينهم، ولكنه يهدف إلى الحكم عليه في الإطار الأخلاقي، الشيء الذي لا يدخل في صلاحيات العلم و العلماء. إن الخلط بين التحليل العلمي و الحكم القيمي خطأ شائع و ليس من السهل دائما اكتشافه.

فهذا السؤال لا معنى له إلا في إطار نظام أخلاقي يحتكم إليه من يطرحه. لذا فإن الجواب عن هذا السؤال لن يتوفر على خاصية العمومية في الزمان و المكان(و لو نسبيا فيما يتعلق بالعلوم الإنسانية على الأقل). و مع هذا نقول أنه يمكننا دراسة الظواهر القيمية أو الدينية بالاحتكام إلى المناهج العلمية لا إلى المنطق القيمي نفسه. هذا ما قام به ماكس فيبر و دوركايم في بحثيهما على التوالي: "الأخلاق البروتستانتية و روح الرأسمالية" و " الأشكال الأولية للحياة الدينية".<sup>1</sup>

#### - دور سؤال الانطلاق في خطة إجراء البحث العلمي:

إن سؤال الانطلاق لا تنحصر أدواره فيما رأيناه حتى الآن فحسب، إنما تتعدى ذلك ليصير تأثيره ممتدا و حاسما طيلة مراحل البحث. من أهم أدواره أنه يؤسس للمرحلة التالية و هي مرحلة البناء النظري ذات الأهمية البالغة بالنسبة لإضفاء الميزة العلمية على أي عمل بحثي.

فسؤال الانطلاق هذا هو سؤال، و كل سؤال يحتاج إلى إجابة. من أجل ذلك و جب على الطلبة الباحثين الذين يطرحونه أن يتلمسوا له إجابة ما. لكن يجب عليهم هنا التنبيه إلى أنهم أمام سؤال تقني و خاص جدا، و عليه فإن الإجابة ينبغي ألا تكون تقليدية،

<sup>1</sup> -Ibid. p.30.

وإنما تتميز بخاصية ما. فكيف تتم الإجابة على هذا السؤال في هذه الخطة التي نحن  
بصددها بيانها؟

تتصح القواعد المنهجية في هذا الباب أن نبحث على الإجابة عن هذا السؤال  
بطريقتين متكاملتين و متعاضدتين: الطريقة الأولى تتمثل في تلمس حقائق تُجيب عن  
السؤال انطلاقاً من الكتابات بمختلف مصادرها  
و أنواعها (كتب، مجلات، تقارير، جرائد ..). أما الطريقة الثانية فتتلمس وقائع من الميدان  
تكون إجابات إمبريقية، يحاول الباحث العثور عليها بعد أن يُجري تحقيقاً لدى عينة  
مختارة بعناية تحددتها طبيعة السؤال.

## 2-2: البناء النظري لموضوعات البحث و أهدافه:

نحاول في هذا العنصر أن نحيط بالمعنى الإجمالي لعملية التنظير، و لماذا نحتاج  
إليه و ما هي فوائده؟

### - معنى البناء النظري لموضوع البحث:

نتناول معنى البناء النظري من زاويتين، الأولى منهما هي بمثابة تحديد المعنى المجرد  
لهذه العملية، أما الثانية فنحاول من خلالها الانتقال من المجرد إلى الملموس من خلال  
تقديم أمثلة مرتبطة بالواقع تسهل على الطالب استيعاب هذه العملية التنظيرية التي لطالما  
ظلت غامضة و مشوشة في ذهنه.

فما معنى التنظير في علم الاجتماع عموماً؟

التنظير (Théorisation) هو تلك العملية التي ينتقل الباحث بواسطتها من مشاهدة وقائع ميدانية محددة و محدودة إلى تعميم يشمل كل الوقائع المشابهة غير المحدودة. أو هو بعبارة أخرى تمكن الباحث من إفراغ أو صب الوقائع الإمبريقية الملاحظة عن طريق الحواس في قوالب مفاهيمية عامة و مجردة.

و هو ما يُعبر عنه باللغة الفرنسية أحيانا ب: *La généralisation* ou *La désingularisation*.

أي أن الباحث ينتقل من الحالات المفردة إلى حالة من التعميم تشمل وقائع متماثلة كثيرة.

و يرى **إيف آلبي** أن التنظير أو النظرية هي مجموعة من القضايا المتناغمة بينها منطقيًا و التي تهدف إلى الإطلاع على جزء من الواقع. إن النظريات بإمكانها عادة أن توفر تفسيرات سببية أو شروحات ما أو تنبؤات. على وجه العموم، فإن مصطلح النظرية يشير إلى حقل من حقول المعرفة (مثلا نقول: النظرية في علم الاجتماع، النظرية الاقتصادية..). أما بالمعنى الدقيق، فإن النظرية تعتبر موقفا خاصا عند دراسة موضوع ما (نقول مثلا: النظرية الماركسية أو النظرية الدوركايمية..). إن النظريات العلمية التي تخص الواقع الميداني تكون دائما متميزة بالانسجام و خاضعة لاختبارات تعززها ميدانيا، كما تعتبر في الوقت ذاته، قابلة لإعادة النظر و مؤقتة.<sup>1</sup>

يرى آخرون أن النظرية تحمل مضامين تقابل ما تحمله المعرفة العامية، فهي ما يكون موضوعا لتصور منهجي مرتب بانتظام ذو ارتباط شكلا ببعض القرارات و الاتفاقيات العلمية التي لا تنتمي إلى الحس المشترك. بمعنى عام، فالنظرية هي بناء فكري يمكن أن يُستنتج منه قوانين بطريقة صارمة استتباطا. يُعبر **لويس بروكلي** عن وظيفة النظرية بقوله: إن مهمتها تصنيف و تركيب نتائج علمية متحصل عليها وتنظيمها في جدول

<sup>1</sup> - Yves Alpe et al. Op cit. P.378.

عقلاني منطقي لا يمكننا من شرح ما هو معروف فحسب، و إنما يسمح لنا بتوقع ما هو مجهول أيضا.<sup>1</sup>

بعد أن حددنا باختصار معنى النظرية من الواجهة التجريدية، نحاول الآن أن نعرف تطبيقاً ذلك في الواقع البحثي الاجتماعي السوسيولوجي على وجه الخصوص.

بداية هذه المرحلة تكون من سؤال الانطلاق الذي سوف يكون محط أنظارنا و محور اهتمامنا. هذا السؤال من بين ما وضع لأجله هو أن يُدخلنا بسلسلة إلى مرحلة الاستطلاعات. ونحن نحاول الإجابة عنه، توصي القواعد المنهجية أن نفعل ذلك بطريقتين: نحاول الإجابة عنه باستطلاع ما كُتب عنه ثم نعقد و ندعم هذه القراءات باستطلاع ميداني. يُستحسن في العادة - يرى بعض المتخصصين - أن نبدأ بالقراءات قبل الاستطلاع الميداني و ذلك من أجل أن تكون لنا خلفية أدبية و حصيلة فكرية لمواجهة المبحوثين في الميدان، فلا يُعقل أن نفعل ذلك و نحن لا نعلم شيء عن الموضوع المراد دراسته.

إن القراءات التحضيرية الأولية من شأنها أن تمنحنا فرصة الاستعلام عن الدراسات المنجزة حول الموضوع من أجل أن نُؤمّضِ مقارنتنا الحالية إزاءها. تسمح لنا القراءات من جهة أخرى، أن نوضح السبيل الأكثر ملاءمة الذي سوف نسلكه نحن قصد دراسة موضوعنا.

إن اختيار القراءات يتأسس على معايير محددة من أهمها ارتباط ذلك الخيار بسؤال الانطلاق و الوقت المتاح للبحث و طبيعة و حجم البحث ذاته.. من جهة أخرى يتطلب هذا النوع من القراءات أساليب خاصة. فعلى الطالب وهو يريد أن يشرع في تلك القراءات، أن يلتزم ببعض المبادئ في اختيار ما يقرأ: ففي هذا الصدد ينصح خبراء

<sup>1</sup> -Gilles Ferréol I(sous la direction). Op cit P.285.

المنهجية ألا يقع الباحث أو الطالب على كل ما له علاقة بالموضوع من قريب أو بعيد، لأن ذلك يؤدي بالقارئ إلى ما يسمى ب: (La gloutonnerie livresque) أي ما يمكن أن نترجمه بشراهة القراءة من الكتب ما يجعل الطالب تأثها و حائرا وسط بحر من المعلومات لا يعرف كيفية التعامل معها و لا الاستفادة منها. من أجل تفادي هذا العيب الذي يرتكبه كثير من الطلبة الذين يحرصون على تقديم شيء ذا قيمة و بدلا من ذلك، يُنصح بالانتقائية في اختيار النصوص ذات العلاقة بسؤال الانطلاق. هكذا، أثبتت التجربة أنه مثلا يُفضل التركيز على المقالات و التقارير العلمية، ذلك لأنها تحتوي على معلومات مركزة و منهجية و تكون أحجامها معقولة لا تستهلك الوقت الطويل، و لا بأس بعد ذلك أن يستفيد الباحث من الكتب لكن دائما مع الاحتفاظ بشرط الانتقاء و الاختصار. ذلك كله لأننا بصدد رزنامة بحثية محكومة بآجال و مواعيد محددة و لسنا نهدف إلى القراءة من أجل القراءة و توسيع الاطلاع.

في السياق نفسه ، يُنصح ألا تكون القراءات مطلقة بل و يجب أن تكون محكومة بما يسمى بشبكة القراءة.<sup>1</sup> و معنى ذلك على وجه العموم أن الطالب و بعد أن ينتقي النص المناسب لموضوعه بدلالة سؤال الانطلاق، يعمد إلى تقطيع ذلك النص إلى فقراته الأصلية أو إلى مضامين موضوعاتية (séquentiels) بحسب الحاجة. بعد القراءة الجيدة و المتأنية ( و عينه دائما على سؤال الانطلاق لأننا نريد الإجابة عنه فلا ينبغي أن يغيب هذا عن أذهاننا طيلة هذه المرحلة)، يلجأ الباحث أو الطالب إلى تدوين الأفكار الأساسية لكل فقرة من الفقرات السابقة الذكر حتى ينتهي من النص المختار. عندها يكون قد تألفت لديه مجموعة من الأفكار المهمة التي تعكس بصدق المضمون الأساسي لمختلف القطع النصية للمادة المقروءة. عند تمام قراءة النص و تسجيل أفكاره الأساسية بعناية، نعود إلى

<sup>1</sup> -voir ceci en détail dans l'ouvrage :Raymond Quivy , Luc Van Compenhoud. Op cit. p.41..

تفحص مجموع الأفكار محاولين معرفة العلاقات و التوصلات ( Articulations ) بينها. إن استيعاب ذلك من شأنه أن يُوسع مداركنا و يزيد من اطلاعنا على خبايا الموضوع.

بعد هذه العملية، يُطلب من الباحث أن يكتب ملخصا متكاملًا و متناغمًا يشمل أهم ما جاءت به الأفكار الأساسية الفرعية مراعيًا في ذلك البنية الأصلية للنص و محافظًا عليها و مشددًا على التنسيق بين الأفكار المحورية و مبرزًا لها. تساعد هذه الملخصات الطالب فيما بعد ليعود إليها وحدها دون تجشم عناء العودة دائمًا إلى النص الأصلي المطول، و بهذا يكون قد استخلص أهم ما يفيد من النص و استغنى من جهة ثانية عن القراءات المتطلبة لأوقات معتبرة. هذا الذي فعله مع هذا النص يفعله مع بقية النصوص المختارة وفق سؤال الانطلاق حتى ينتهي من مرحلة القراءات كلها.

الآن وقد انتهينا من القراءات، يجب الانتقال إلى عملية غاية في الأهمية ألا و هي محاولة إلقاء نظرة تفحصية نقدية تركيبية تشمل مستويين: المستوى الأول، تخص هذه العملية أفكار كل نص على حدة، و المستوى الثاني نفحص و ننقد و نركب و نواجه بين أفكار النصوص جميعها. بعد قراءتنا النقدية و مواجهة مختلف الأفكار المستخلصة من النصوص بعضها مع بعض، يُفترض أن يكون الطالب قد بدأ يغادر منطقة الحس المشترك إزاء رؤيته لموضوعه و يدخل مرحلة ما يُسمى إبستمولوجيا "القطيعة الإبستمولوجية" أي التمييز بين المعرفة الشائعة العامية و المعرفة الموضوعية العلمية. تسمح هذه القراءات للطالب بأن يفتح على حقائق و آفاق متعلقة بالموضوع لم تكن تخطر له على بال لولا هذا الجهد المنظم و الممنهج.

الآن و قد تأسست لدى الطالب الباحث خلفية أدبية حول الموضوع، و جب عليه أن ينتقل إلى مرحلة أخرى هدفها تعزيز الأفكار المجمععة عن الموضوع و تمحيصها ميدانيا. إنها المرحلة المسماة ب: "المقابلات الاستطلاعات"، من خلالها يبحث الطالب عن

إجابات لسؤال الانطلاق. لكن السؤال المطروح هنا من أين يختار الطالب الباحث من يقابلهم و يستطلع آراءهم؟

ينصح علماء المنهجية الباحثين عموماً بأن لهم ثلاثة أصناف من المخبرين: صنف المختصين و هم الذين لهم دراية علمية أكاديمية حول موضوع سؤال الانطلاق و صنف ثان و هم الذين لهم إطلاع واقعي ميداني على الظاهرة المراد دراستها و صنف ثالث وهم من عايش و تعرض بالفعل للظاهرة. من أجل توضيح ذلك لنضرب المثال التالي:

إذا كان سؤال الانطلاق يخص موضوعاً متعلقاً بإدارة السجون و المساجين مثلاً، فإن الصنف الأول يكون من ضمنهم أساتذة القانون و المحامون.. أما الصنف الثاني فهم أعضاء إدارة السجون و الحراس.. أما الصنف الثالث فهم السجناء أنفسهم. إذا تمكن الطالب من اختيار عينته التي يجب أن تكون محدودة (عادة من ثلاثة إلى سبعة أو حتى عشرة حيث لا وجود لضابط دقيق في هذا الشأن و إنما يخضع ذلك لطبيعة البحث و منطقته و لتقديرات الباحث و ذلك محكوم على وجه العموم بالإشباع المعرفي و المعلوماتي إزاء مضمون سؤال الانطلاق)، وجب عليه أن يُحَضَّر وثيقة تسمى دليل المقابلة، تتكون من بضعة أسئلة تتمحور حول موضوع سؤال الانطلاق. تكون في الغالب هذه الأسئلة مفتوحة قدر الإمكان لكي تسهل الإحاطة بكل جوانب الموضوع الممكنة. بعد أن يجري المقابلات و يسجل المعطيات بعناية و اهتمام، يُخضعها إلى قراءات تفحصية و نقدية كما فعل تماماً أثناء مرحلة القراءات مسجلاً الأفكار الأساسية و قد يضطر الباحث عموماً إلى تقنية تحليل المحتوى (محتوى معطيات المقابلات).

- بناء الإشكالية و نموذج التحليل (الفرضيات).

يعتبر بناء الإشكالية و نموذج التحليل القلب النابض لموضوع البحث عامة و لعملية التنظير خاصة. فمن أين يُؤتى بالإشكالية و بالنموذج التحليل؟ هذا ما يُحير في معظم الأحيان أغلب الطلبة. يجب على الطالب أن يعلم أن خطة إجراء البحث هذه متسلسلة و مترابطة و كل مرحلة حالية تحضر و تمهد للمرحلة التي تليها. و هكذا و من أجل بناء الإشكالية يجب علينا ضرورةً أن نستثمر مرحلة الاستطلاعات بنوعيتها: القراءات و المقابلات استثماراً منهجياً منظماً.

ففي مرحلة القراءات كنا قد سجلنا كثيراً من الأفكار ذات الدلالة بالنسبة لسؤال الانطلاق و واجهنا بينها تأملاً و تمحيصاً و نقداً ما جعل آفاقاً متعلقة بالموضوع تفتح أمامنا كنا نجهلها. الأمر ذاته قمنا به مع الأفكار المستخلصة من المقابلات، ثم في الأخير واجهنا بين أفكار القراءات و أفكار المقابلات.. في هذا المستوى من البحث نكون قد بلغنا شوطاً دقيقاً و عميقاً لموضوع البحث ما جعلنا في موقف المسيطر عليه خبرة و دراية. فماذا يحصل في هذه اللحظة؟ في هذه اللحظة بالذات نكون في وضعية تسمح لنا بإعادة النظر في سؤال الانطلاق. لماذا و كيف؟

لقد كان هذا السؤال عند طرحه أول مرة بسيطاً و ساذجاً لأنه كان يتناسب مع جهلنا بخفايا و دقائق و تفاصيل الموضوع أي قبل الاستطلاعات (قراءات و مقابلات)، أما الآن و قد اطلعنا عليه بعمق و تفصيل منهجيين، فقد صار من الممكن بل من الواجب العلمي أن نرتفع بهذا السؤال و نحوره شكلاً و مضموناً محولين إياه من بساطته و منتقلين به من منطقة الحس المشترك إلى منطقة الحس العلمي الموضوعي وذلك عن طريق استيعابه بصيغة أو أخرى لسيل المعلومات الدقيقة و العميقة التي وقفنا عليها إلى الآن. و مع هذا نسال: كيف يُصاغ هذا السؤال؟ يجب في صياغته أن تكون علمية. و لكن مرة أخرى، كيف تكون الصياغة علمية؟

الأصل في هذا السؤال أن يكون جامعا بين مختلف الإفادات التي استقينها من مرحلة الاستطلاعات مراعي العمق و الواقعية من جهة و من جهة أخرى يجب أن تَبَرَّرَ هذه الصياغة في مفاهيم أو مصطلحات علمية. ولكن، ومرة أخرى أيضا، من أين نأتي بهذه المفاهيم؟<sup>1</sup> من المعلوم أن مصدر المفاهيم هو النظريات بنوعها العامة (مثلا الوظيفية، البنيوية، البنائية..) و التطبيقية أي الجزئية التي تستخدم في مجال محدود(سنعطي أمثلة عنها لاحقا). كما يمكن أن يكون مصدر المفاهيم تلك، الفرضيات التي وضعها الباحثون و عملوا عليها نفيًا أو إثباتًا ولكنها لم تبلغ مرتبة النظرية إذ حتى الفرضيات يُعبر عنها بالنظريات عند الاتساع في الكلام. من أجل ذلك يجب على الطالب أن يكون على إطلاع و لو على وجه العموم على مختلف النظريات الجاري بها العمل في علم الاجتماع لأجل أن يكون في سعة من أمره و يكون حائزا على خيارات متعددة إزاء النظرية و المفاهيم التي يريد أن يقارب بها الموضوع.

من أجل أن نمثل لتطبيق ما قلناه، ونقصد به الاهتمام بنظرية نراها الأقرب لأن تُوَطر موضوع البحث عندنا، فإن الطالب ملزم قبل الإقدام على ذلك أن يطلع على الأفكار التي تهيكل النظرية المختارة اطلعا جيدا و أن تتضبط و تتقرر عنده مفاهيمها بصورة واضحة تماما ثم يكون مقتنعا بأنها الأكثر مناسبة للموضوع كونها تقدم تفسيرات أفضل من غيرها.. ، ففي هذه الحالة فقط يُسمح له بتبنيها(مع استشارة من هم أكثر منه خبرة). فإذا كنا مثلا بصدد دراسة مواقف الأحزاب الفاعلة بخصوص موضوع من مواضيع الساعة، فإنه يمكن الاهتمام في ذلك بمفهوم الحقل عند **بيار بورديو** مستلهمين ذلك مباشرة من الأفكار التي استعملها هو نفسه و التي نجدها سواء في مراجع تعليمية تعرض نظريته، أو في دراساته الأصلية(مقالات حول الحقل السياسي)(Propos sur le champ politique. Lyon, Presses universitaire de Lyon,2000).

<sup>1</sup> - Cf. Madeleine Grawitz. Méthodes des sciences sociales. 11<sup>eme</sup> édition. Dalloz.Paris1.2001.p.384.

كما يمكننا إذا كنا بصدد دراسة موضوع متعلق بمنظمات أو مؤسسات و مضمونه  
مثلا صراع حول تنظيم مستجد أو إدخال تجهيز تكنولوجي حديث، أن نستفيد من  
الأدوات المفاهيمية و الفرضيات الواردة في نظرية التحليل الاستراتيجي للمنظمات التي  
بلورها كل من كروزي و فريدبارغ ( المصدر نفسه). مرة أخرى، إذا أردنا أن ندرس تفشي  
إشاعة أو معلومة في جماعة معينة مثلا، يمكننا توظيف نظرية تحليل الشبكات  
الاجتماعية محاولين إعادة بناء تدفقات تلك المعلومات أو الإشاعات و أهم المسالك التي  
مرت بها. أما إذا أردنا دراسة سلوكيات الاحتجاجات في أحياء شعبية، يمكننا أن نقارب  
ذلك مثلا بواسطة نظرية الفاعل الاجتماعي مثل ما هي عند **دوبي** في ( La galère.  
jeunes en survie. Parie, Le seuil, 1987). فإذا بحثنا في كيفية تشكل فعل  
جماعي، أمكننا مثلا أن نقارب ذلك بإطار مفاهيمي أعده **ماك آدم** و آخرون و بالأخص  
منه مفهوم شبكة الحشد المصغر (Micromobilisation).. إذن، فما ينبغي علمه هنا هو  
أن الواجب و نحن نستعمل هذه المقاربات النظرية أن نكون مرنين في ذلك بإدخال بعض  
التكيفات أو التصحيحات عليها حتى تكون أكثر ملاءمة لموضوع البحث عندنا.<sup>1</sup>

بالخلاصة، إن تحديد إشكالية ما لموضوع ما هو بمثابة ارتفاع بمستوى التفكير فيه من  
وضعية ساذجة تحكمها الأحكام القيمية للحس المشترك إلى مستوى أعمق و أدق يستبعد  
كل التشويشات الذاتية و يلتزم بالحيادية و الموضوعية في الحكم على الأشياء و فهمها.  
و لهذا الارتفاع في مستوى التفكير آلياته الواجب تفعيلها، منها استخدام المفاهيم  
و الاستناد إلى نظريات ثم الصياغة العامة و المجردة. بهذا يتحول سؤال الانطلاق من  
مجرد سؤال عادي يمكن أن يطرحه أيا كان إلى سؤال مُنظَرٍ و مصاغٍ عن دراية و تدقيق  
لا يستطيع بلورته سوى المتخصص الذي اطلع على خبايا الموضوع المدروس. بهذه  
الصفات يتحول هذا السؤال إلى مشكلة بحثية حقيقية تتطلب إجابة منهجية و بذلك

<sup>1</sup> - Raymond Quivy , Luc Van Compenhoud. Op cit. p.98

فسوف تستولي هذه المشكلة على كل اهتمامات الباحث من الآن و إلى غاية انتهاء البحث. فدوركايم مثلا عندما تناول ظاهرة الانتحار كان من الممكن أن يبقى حبيس الإطار النفسي على اعتبار أنه من الواضح و البديهي أن دوافع هذه الظاهرة فردية و تعود بالذات إلى ضغوط عصبية أو نفسية تفرض نفسها على الإنسان و كل تجربة انتحار هي مفردة في نفسها ولا يبدو أن هذه المفردات يربطها خيط ناظم ما.. و مع هذا المنطق الذي يفرض نفسه، إلا أن دوركايم و بعد أن قرأ و استطلع كثيرا من التقارير و الإحصائيات الخاصة بالظاهرة في بعض الدول و قارنها و تأملها تأمل الباحث الناقد.. استطاع في النهاية أن يضع تصورا جديدا للظاهرة لا ينكر التفسير البيكولوجي بالضرورة ولكن يتجاوزه ليؤسس لنظرة أشمل مفادها أن الانتحار ظاهرة اجتماعية و يمكن أن يُفسّر اجتماعيا<sup>1</sup>.

بعد أن ينجز الطالب هذه الخطوة المهمة بعناية و صبر محدد صياغة سؤاله المتجدد وفق ما تم بيانه سابقا، ينتقل إلى خطوة جديدة هي تصور حل افتراضي لمشكلة البحث. هذا التصور يعتمد على إيجاد فرضية (أو فرضيات) تكون بمثابة إجابة مؤقتة للمشكلة. وتوصف الفرضيات عادة بأنها مؤقتة لأن ما يلي من البحث سوف يُخصص من أجل اختبارها و فحصها فتتأكد(تتعزز عند كارل بوير) أو تُنقى. إذا استلزمت الإشكالية أكثر من فرضية و كانت بين هذه الفرضيات ترابط و تناغم سُمي هذا الكل نموذجا تحليليا. فلقد افترض دوركايم لظاهرة الانتحار أسبابا اجتماعية صرفة هي:

- التماسك الاجتماعي الضعيف،

- التماسك الاجتماعي القوي،

- الأنوميا(غياب المعايير).

<sup>1</sup> - Voir en ce sens des exemples : Ibid.p.106

هذه الأسباب هي فرضيات ثلاث، لكنها ليست مثبتة الصلة (مقطوعة) فيما بينها. فعند التأمل يُلاحظ أن التماسك الاجتماعي عندما يَضْعُفُ يؤدي إلى الانتحار و هو ما أسماه بالانتحار الأثاني و على العكس تماما فإن التماسك الاجتماعي عندما يَقْوَى يؤدي أيضا لنفس الظاهرة (الانتحار) ! و هو ما أسماه بالانتحار الإيثاري، أي بمعنى آخر أن الانتحار كظاهرة اجتماعية تحدث بظاهرة اجتماعية أخرى بل و بضعها ! كما أن الأنوميا الاجتماعية و هي انحلال المعايير التي تشد أفراد المجتمع و هي قريبة جدا من المفهوم الأول، تؤدي بدورها إلى الانتحار ذاته و يسمى الانتحار اللامعاري. فالفرضيات الثلاث يظهر بينها تناسق و تعاون وتكامل في فهم ظاهرة الانتحار من جميع جوانبه الاجتماعية. فكأنها روافد تتعاون و تجتمع لتكون في النهاية ظاهرة اجتماعية أخرى. بقي أن نشير إلى أنه كما أن تأكيد الفرضيات بمواجهتها مع الوقائع الميدانية أمر ذو أهمية بالغة بالنسبة للعلم، فإن نفيها (إبطالها، تخطئتها عند بوير) قد يكون له الأهمية نفسها سواء بسواء. ذلك أن إبطال فرضية ما هو بمثابة إزاحة تخمين عن طريق الباحثين كان يشغلهم ليتفرغوا بعده إلى افتراضات أخرى نفيًا و اثباتًا، تماما كما يفعل الأطباء عندما يستخدمون ما يسمى بمقاربة "التشخيص بالإقصاء" (Diagnostic Par élimination).

### - بعض النظريات المستعملة في علم الاجتماع:

في هذا السياق لا نريد أن نستعرض من جديد ما قد اطلع عليه الطالب في مجال النظريات خلال السنوات الماضية. إذ من المفترض فيه أنه يكون قد أَلَمَّ بمختلف النظريات المستخدمة في بحوث علم الاجتماع ولو على وجه الإجمال كالنظرية الوظيفية أو البنوية أو البنائية أو الماركسية.. إنما نسعى من خلال هذا العنصر إلى تنبيه الطالب (الباحث) إلى نوع من النظريات المسماة بالنظريات التطبيقية أو النظريات الصغرى و التي يمكن أن تكون لها قيمة كبرى في توجيه البحوث بدقة و سهولة أكبر، و نقصد بذلك تلك التي تستعمل في حقل من الحقول الاجتماعية الخاصة. فلقد أظهرت

تطبيقاتها فعالية و نجاعة ملحوظتين في الدراسات الاجتماعية ذات المدخلات الصغرى (Les études micro-sociologiques). من أجل ذلك نورد بعض الملخصات من تلك النظريات، أو ما يسمى أحيانا بالبراديغمات أو النماذج النظرية أو التيارات الفكرية، من أجل لفت الانتباه عند الطلبة للاستعانة و الاستفادة منها ، و ذلك على سبيل المثال لا الحصر.

• باراديغم (أو نظرية) نشوء الرأسمالية لـ **ماكس فيبر**:

" إن البورجوازي يتحول إلى مفاول عندما يرى أن الثروات هي بمثابة رأسمال و استثمار إنتاجي و ليس فقط فرصة للمضاربة أو لحياة كمالية. إن الديانة الروحية للكالفينيين متطابقة مع هذه الإيديولوجية."

• باراديغم التنشئة الاجتماعية المسبقة لـ **روبيرت ميرتون**:

"إن الأفراد يجنحون للأخذ بمعايير و سلوكيات الجماعات التي يتمنون الارتباط بها، عوض معايير و سلوكيات الجماعات التي ينتمون إليها."

• باراديغم الإحباط النسبي لـ **ستوفير**:

"إذا كانت المعايير الاجتماعية محددة بوضوح و تبدو مستقرة، فإن الأفراد يحدون من طموحاتهم وفق تلك المعايير. أما إذا كانت المعايير مبهمة و مضطربة، فإن الأفراد يضعون لأنفسهم طموحات تتجاوز إمكانيات التحقيق، و عندها يشعرون بالإحباط."

• باراديغم العائلة النووية لـ **تالكوت بارسنز**:

"إن تطور المجتمع الصناعي يحتم حراك السكان و من ثمَّ استقلالية الأطفال، مما ينتج عنه ظهور العائلة النووية."

• باراديغم الفعل الجماعي لـ **وازون**:

"لا أحد له مصلحة في بذل جهد من أجل دعم منظمة تمنح منافع و خدمات جماعية ما دام الحصول عليها متاح على كل حال، إنما تتم المشاركة في ذلك الجهد عندما تُقدّم هذه المنظمة- زيادة على ذلك- تعويضات فردية.".

• باراديغم رأس المال الاجتماعي لـ **بيار بورديو**:

"إن المساواة في الولوج إلى المدرسة يُبقي على التفاوت ذي الأصل الاجتماعي، لأن أطفال الطبقات العليا يمتلكون الوسائل الثقافية و التحفيزات التي تمكنهم من الاستفادة الجيدة من المدرسة عكس أطفل الطبقات الدنيا.".

• باراديغم صراعات الجماعة لـ **داهروندورف**:

"إن التباينات داخل المجتمع تؤدي إلى تباينات في الجماعات الاجتماعية و إلى التخصص في المصالح لدى تلك الجماعات: و من ذلك ينتج تعدد صراعات المصالح.".

• باراديغم الديمقراطية لـ **أليكسيس دو طوك فيل**:

"المساواتية ( L'égalitarisme )<sup>1</sup> هي قوة المجتمعات الديمقراطية، وكلما تطورت المساواة، كلما صارت اللامساواة صادمة و محفزة على المساواة.".

• باراديغم شيكاغو لـ **بارك و بورجيس**:

---

<sup>1</sup>- نزعة أو مذهب يدعو إلى المساوات بين البشر.

"إن تعميم المدينة يتم وفق مناطق مشتركة المركز (Concentriques) و بتجمع مختلف الجماعات الإثنية و الاجتماعية".

• بارديغم صراعات الطبقات ل كارل ماركس:

"الطبقات الاجتماعية تكون دائما في صراع. يجب على الفلاحين وعلى الطبقات المتوسطة أن يتوزعوا بين البرجوازية و البروليتارية، هذه الأخيرة ستحل محل البرجوازية باعتبارها طبقة مهيمنة، في انتظار مجتمع بدون طبقات."

• بارديغم منطق الإشارات ل بودريار:

"في المجتمعات الغنية، يتخذ المستهلك إشارات اجتماعية، في الوقت ذاته الذي يقتني فيه منافع و خدمات، فينتج أن يقوم منطق الإشارات مقام منطق الحاجات ويصير متحكما في خياراته أكثر من المنفعة في حد ذاتها."<sup>1</sup>

إن الاطلاع على مثل هذه النظريات الجزئية المتخصصة و غيرها، من شأنه أن يوفر فرصة للباحث لأجل أن يضع جهده البحثي على أساسات علمية موثوقة. إن العمل في إطار نظرية سواء أكانت عامة أو جزئية، يضيف على البحث مصداقية أكثر، ذلك لأن بناء صرح العلم يُشترط له التراكم و هذا لا يحدث إلا من خلال العمل داخل دوائر نظرية معروفة. زيادة على ذلك فإن النظرية يمكن أن ترشد و تلهم الباحث سواء على مستوى مساءلة الظاهرة مساءلةً ترتفع عن الحس المشترك، أو على مستوى التخمينات الفرضية. علاوة على هذا، فإن البحوث الجادة، يمكنها أن تعزز من مصداقية النظرية أو أن تدفع باتجاه إعادة النظر فيها.

- أهم المناهج المستخدمة في علم الاجتماع:

<sup>1</sup> - Voir plus de détail dans : H. Mendras , M. Forsé, Le Changement social, Paris, Colin, 1983, P.264.

كثيرا ما يقع خلط عند الطلبة بل و حتى عند كثير من المتمرسين عندما يتعلق الأمر بالحديث عن المناهج. فالخلط يحدث خاصة بين ثلاثة من المفاهيم على الأقل و هي: المنهج و الخطة و النظرية (Méthode, Démarche, Théorie). أعتقد أن منشأ ذلك يعود في جانب كبير منه إلى طريقة حديث المتخصصين: فعندما يتكلمون بتوسع (بمعنى بعدم تدقيق في الكلام) يقولون مثلا المنهج الماركسي و هم يقصدون النظرية الماركسية، أو يقولون: هذا البحث أَعْمِدَتْ فيه الخطة التاريخية و هم يقصدون المنهج التاريخي و هكذا.. كما يحدث غالبا أن نقول: هذه النظرية قد أثبتت جدارتها، و نحن نقصد الفرضية فقط. أو أن نقول مثلا: تقنية الملاحظة، و آخرون يقولون منهج الملاحظة أو دراسة حالة هل هي منهج أم تقنية؟.. أما حينما يُضبط و يُدقق الكلام فالمنهج شيء و الخطة شيء ثان و النظرية شيء آخر.

في هذا العرض سنقتصر على ذكر أهم المناهج المتداولة في علم الاجتماع، ثم في الأخير نحاول أن نعرف كيف يتمكن الباحث عموما من أن يفضل منهجا على آخر. قبل أن نلج إلى عمق الموضوع يجدر بنا أن نقدم تعريفا عاما للمعنى العام الذي يعطيه العلماء لمفهوم " منهج ". فترجمة كلمة منهج بالإنجليزية (Method) تعود إلى أصل يوناني يعني البحث أو النظر أو المعرفة. و المعنى الاشتقاقي لها يدل على الطريقة التي تؤدي إلى الغرض المطلوب.

وقد حدد العلماء معنى المنهج بأنه فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، إما من أجل الكشف عن حقيقة مجهولة لدينا، أو من أجل البرهنة على حقيقة يجهلها الآخرون.<sup>1</sup>

<sup>1</sup> - محمد زيان عمر. مرجع سابق. ص. 48.

في بعض الأحيان يلجأ كثير من الكتاب إلى تصنيف المناهج بغية تفادي الخلط والإرباك و التشويش الذي قد يحصل عند القارئ. ويكون هذا التصنيف مرتكزا على أساس معايير ما. فإذا نظرنا إلى مناهج البحث من حيث نوعية العمليات العقلية التي توجهها و تسير على منوالها، أمكننا أن نحصي ثلاثة أنواع من المناهج:

• المنهج الاستنباطي(الاستدلالي)، و فيه يربط العقل بين المقدمات و النتائج أو بين الأشياء و عللها على أساس المنطق و التأمل الذهني، فهو يبدأ بالكليات ليصل منها إلى الجزئيات.

• المنهج الاستقرائي، و هو على عكس سابقه ينطلق من الجزئيات ليصل منها إلى قوانين عامة و يعتمد أساسا على الحواس التي تتخذ من الملاحظة المنظمة و التجريب و التحكم في المتغيرات المختلفة وسيلة.

• المنهج التاريخي(الاستردادي)، فهو يعتمد على عملية استرداد ما جرى في الماضي ليمحص مجريات الأحداث بدقة ليتمكن في الأخير من تحليل و تعيين القوى والمشكلات التي صاغت الحاضر.<sup>1</sup>

أما تصنيف المناهج من حيث استعمال الرياضيات والإحصاء فيمكننا تقسيمها إلى نوعين:

• المنهج الكمي، و هو الأسلوب الذي يعتمد عليه الباحث محاولا تكميم الظاهرة من خلال تكميم أبعادها و مؤشراتنا، و تتم عملية التفسير بناء على ما تسفر عنه النتائج الرياضية و الإحصائية دون اعتبار للمعاني التي يضيفها المبحوثون على أفعالهم.

• المنهج الكيفي، وهو الطريقة المقابلة للمنهج الكمي، الذي يعتمد فيه الباحث أساسا على الدلالات المعنوية التي يضيفها الفاعل الاجتماعي على سلوكياته موضوع الدراسة.

<sup>1</sup> - المرجع نفسه. ص. 49.

و مع هذا فإن المنهج الكيفي قد يستعين في بعض الدراسات بالحساب و الإحصاء و الجداول كما هو الحال عند تحليل مضامين نصوص المقابلات أو غيرها.. و يكون ذلك على سبيل تأكيد المسعى الكيفي لا العودة إلى المنهج الكمي.<sup>1</sup>

كما يمكن تصنيف مناهج البحث اعتمادا على "أسلوب الإجراء"، أي أهم الوسائل التي يستخدمها الباحث:

• منهج المسح، و هو يهدف إلى جرد كلي و شامل لعناصر موضوع البحث دون استثناء، معتمدا في ذلك على جمع البيانات الميدانية المختلفة بوسائل متعددة و مختلفة و يتضمن الدراسة الكشفية و الوصفية و التحليلية.

• منهج دراسة الحالة، و هو الذي يركز على دراسة وحدة معينة فردا كان أو وحدة اجتماعية (مصنع، مدرسة، قرية، حي، مدينة..)، و يتطلب اختبارة و مقاييس و وسائل خاصة.<sup>2</sup>

• المنهج التجريبي، و هو الذي يعتمد على إجراء التجارب تحت شروط معينة. إن استخدامه في العلوم الإنسانية قد حصل عبر تخصص في علم النفس يسمى علم النفس التجريبي. و أوائل من استقدمه من العلوم الطبيعية هما بدون شك: Wilhelm Wundt(1832- 1920), Ivan Pavlov(1849- 1936). فهذا الأخير قد أوجد المخبر الأول المختص في علم النفس التجريبي سنة 1879 بألمانيا. انصبت اهتماماته

<sup>1</sup>- يُحسن بالطالب هنا أن يعود إلى أمثلة مهمة و مناسبة وردت في الدليل المنهجي المُعد من قبل كل من سعيد سبعون و حفصة جرادي و المتعلق بإعداد المذكرات و الرسائل الجامعية في علم الاجتماع. و هو مرجع متوفر و باللغة العربية.

<sup>2</sup>- عمر زيان مرجع سابق، ص49.

على اللغة و الفكر و الطبع. أما الأول فقد اقتحم تاريخ العلوم الإنسانية بتركيزه على موضوع تعلم الحيوانات بالمنعكس الشرطي..<sup>1</sup>

كما يمكن الإشارة إلى التجارب التي أجراها ( Stanley Milgram ). فبعد صدمته من الفظائع النازية خلال الحرب العالمية الثانية، حاول أن يتفهم: كيف أمكن لبعض الأفراد العاديين، آباء في عائلات، مسيحيون طيبون، أشخاص مهذبون.. أن يتحولوا إلى جلادين مرتكبين أفعالاً شنيعة.. ينطلق ( Milgram ) من فرضية الأثر القوي الناتج عن الامتثال للسلطة. فيعطي الأمر لبعض الطلبة للضغط على مقبض يُولد شحنات كهربائية تُوجه لمجموعة من الطلبة الآخرين تميزوا بعمل غير مرضي. النتيجة في الواقع أن الصدمات الكهربائية قد كانت محفزة و الضحايا تظاهروا بالألم، و الخاضعين للتجربة قد امتثلوا في غالبيتهم للصاحب التجربة (صاحب السلطة). على هذا المنوال، واصل تجريبون آخرون هذا المسعى ليصلوا في النهاية إلى النتيجة التالية: إن الضحية كلما تتعرض لعقاب أشد (ارتفاع شدة التيار المولد للصعقة) استجابة لصاحب السلطة (صاحب التجربة)، كلما نُزعت عنها صفة الإنسانية في مخيلة الجلاذ.. و هذا ما قد يفسر الحملات التي تعرض لها اليهود قبيل اضطهادهم..<sup>2</sup>

بغض النظر عن الجدل القائم بين علماء المنهجية حول قيمة المنهج التجريبي في العلوم الإنسانية و الاجتماعية (بين العلماء وبين و غيرهم)، سيبقى هذا المنهج مجرد أسلوب ضمن أساليب أخرى غير تجريبية، يُستدعى من حين لآخر للمساهمة في سير أغوار الظاهرة الإنسانية المتسمة بالتعقد و الديناميكية.

## 2-3: تقنيات البحوث العلمية في علم الاجتماع.

تمهيد:

<sup>1</sup> - François Dépelteau. Op cit. p.251

<sup>2</sup> - Ibid.p.252

نتناول في هذا المحور جملة التقنيات المعتمدة عند اختيار العينات في البحوث العلمية، وسنقتصر على أشهرها وأكثرها تداولاً، منبهين على المبررات التي تستدعيها و ما صلة ذلك بطبيعة الموضوع الخاضع للبحث. بعد ذلك نعبّر إلى نوع ثانٍ من التقنيات و هي تلك الخاصة بجمع المعطيات الميدانية و الخاصة باختبار الفرضيات المطروحة.

### - تقنيات اختيار العينات في البحوث العلمية.

إن أصل الاعتماد على العينات في البحوث العلمية يعود إلى العلوم الطبيعية. إذ إن التجريب على مواد كيميائية أو عضوية أو على أحجام فزيائية أو حالات غازية أو سائلة أو جامدة.. يُسفر دائماً على نتائج يمكن تعميمها على جنس المادة الخاضعة للتجريب. إن الاطراد و الانتظام الذي يسري و يحكم هذا الصنف من موضوعات البحث، يوفر على مختصيه الجهد و الوقت و المال من جهة و من أخرى يوفر لهم الاطمئنان التام من أجل صياغة نظريات علمية تُرتبُ ضمنها قوانين تصدق و تتكرر دائماً<sup>1</sup>. متأثرين بدقة و صدق هذا المنهج الذي أبان عن تقدم و تحكم في المادة و تطويعها لمصلحة الإنسان، لم يجد علماء الظواهر الإنسانية و الاجتماعية بدا إلا سلوك هذا المنهج في التعامل مع مواضيعهم.

الذي حدث عند اقتنائهم لذلك المنهج، هو أن طبيعة مواضيعهم تختلف جذرياً عن مواضيع علماء الطبيعيات: فلا الأسباب تؤدي إلى نفس النتائج دائماً و لا الظواهر قارة و ثابتة بل متحولة وديناميكية عبر الزمان و المكان و لا الباحث منفصل و موضوعي إزاء بحثه، إضافة إلى تضافر أكثر من سبب- في أحيان كثيرة - في إحداث الظواهر الاجتماعية و الإنسانية. كل هذه التباينات بين العلوم الطبيعية و العلوم الإنسانية أوجد أزمة في صياغة نظريات ذات مصداقية تحكم هذه الأخيرة. ما يشغلنا من هذا كله هو أن

<sup>1</sup>- من الغريب أن هذا الدوام و الاطراد تدخل عليه استثناءات كثيرة و ذلك فيما يُسمى بفزياء الكوانتوم أو فزياء الكم، بحيث لا أحد يمكن أن يتنبأ بتصرف الجزيئات ما تحت الذرة و ذلك ما يُسمى بمعضلة القياس.. هذا ما أحدث إرباكاً كبيراً في فكر أنشأتين.. مما دفعه إلى القول بأن الله لا يلعب بالنرد.. فرد عليه نيلس بور : و من أنت حتى تبين لله ما يجب عليه فعله؟!

العينات المقتطفة في العلوم الإنسانية و الاجتماعية لا تكون دائما و بالضرورة ممثلة لبقية جنس الموضوع و بالتالي لا يمكن تعميم النتائج مما يمنع من التأسيس للنظريات و لو نسبيا في هذا التخصص، علما أن النظرية هي أعلى مراتب العلم.

قبل أن نخوض غمار العينات و المعاينة، يحسن بنا التوقف عند مفهوم شديد الصلة و التداول عند الحديث عن هذا الموضوع: إنه مجتمع البحث (Population) و قد يُسمى بالمجتمع الأصلي. فدون فهم لمضامين هذا المصطلح و دون تحديد لخصائصه، لا يمكن إجراء عملية معاينة صحيحة و لا الحصول على عينة تتوفر فيها الشروط العلمية. فما المقصود بمجتمع البحث؟

في إطار العلوم الإنسانية، يُقصد بمجتمع البحث حسب ( Madeleine Grawitz ):  
" مجموعة محدودة أو غير محدودة من العناصر المعلومة سلفا التي على أساسها تقوم عملية الملاحظات"<sup>1</sup>. و يتوقف تحديد هذا المجتمع بحسب معيار أو أكثر تكون متوفرة في العناصر التي تُنتخب لتكوين العينة و تكون هذه المعايير محكومة بدورها بطبيعة البحث و الهدف منه. فإذا كان مجتمع بحث لموضوع ما هو "سكان الجزائر" مثلا، فيكون هذا المجتمع قد بني على معيار " السكن بالجزائر". فكل من سكن هذا البلد توفر فيه هذا المعيار بغض النظر عن كونه مواطنا أو لا، فمعيار المواطنة هنا غير معتبر لأسباب استدعتها أهداف البحث الموضوعية. من هذا فبحثنا لن يتأثر بأي معيار آخر: لا المواطنة و لا الجنس و لا السن و لا المستوى الثقافي و لا الحالة المدنية و لا طبيعة السكن و لا غيره.. بعبارة أخرى فإننا نصبوا من خلال هذا البحث إلى الوصول لكشف وقائع و حقائق نصل إليها من دراستنا لعدد محدد من العناصر يسكنون الجزائر أي تتوفر فيمن ينضم إلى قائمة مجتمع البحث منهم مجرد معيار "السكن في الجزائر".

<sup>1</sup> - Maurice Angers. Op.cit. p.264

كما يمكن أن يكون مجتمع البحث مثلا، مجموع الكتب بمكتبة بلدية. فالمعيار المعتمد هاهنا ليست كتب المكتبات الخاصة و لا المكتبات المدرسية و لا غيرها، إنما الكتب الموجودة في المكتبات التابعة للسلطة البلدية المحلية. هذا المعيار - كما تجدر الإشارة - لا يُحدِّدُ اعتبارًا و إنما يحدده المرمى و المغزى من البحث ذاته.

هذا إذا تعلق الأمر بمعيار واحد، في أحيان أخرى كثيرة، يمكن أن يتحدد مجتمع البحث بحسب معيارين أو أكثر. ففي بحث من البحوث مثلا يفرض علينا مقصد البحث أن نجري البحث على كل من كان ساكنا بالجزائر و هو يحوز على الجنسية الجزائرية و يكون مولودا في الألفية الثانية. ففي مجتمع البحث هذا تجب مراعاة معايير ثلاثة: السكنى بالجزائر و بذلك يخرج كل من كان جزائريا ولكن يسكن خارجها، حيازة الجنسية الجزائرية و بذلك يخرج كل من سكن بها لكن لم يتجنس بجنسيتها، تاريخ الميلاد يكون واقعا في حدود الألفية الثانية (1900 - 1999)، و بهذا يخرج من دائرة اهتمامنا كل من ولد في الألفية الثالثة.

بالعودة إلى مفهوم العينة في العلوم الإنسانية و الاجتماعية، يمكن أن يلاحظ أي طالب علم أنه من غير الممكن واقعا و في جل الحالات أن نخضع جميع أفراد مجتمع البحث للدراسة. الأسباب التي تحول دون ذلك تتمثل عادة في الإمكانيات المرصودة لذلك الغرض فلا الوقت يتسع لذلك و المال يتوفر لتغطية النفقات.. من أجل هذا و غيره من الأسباب ينصح علماء المنهجية أن يُقدِّم الباحثون على عملية يسمي بالمعاينة و هي: " مجموعة عمليات تمكن من انتقاء مجموعة فرعية من مجتمع بحث بقصد تكوين عينة".<sup>1</sup>

فالمعاينة هي إذن تلك الأساليب التقنية التي يعتمدها الباحث و الذي لا يمكنه أن يُوسع دراسته لتشمل كل أفراد "المجتمع الأصلي أي مجتمع البحث"، و التي من خلالها

<sup>1</sup> - Ibid.p.267

يمكنه أن يشكل في النهاية ما يُسمى بالعينة التي ما هي إلا: "مجموعة فرعية تتكون من عناصر منتقاة من مجتمع بحث ما".<sup>1</sup>

على العموم، يوجد صنفان كبيران للمعاينة: يُسمى الصنف الأول بالمعاينة الاحتمالية و يُسمى الصنف الثاني بالمعاينة غير الاحتمالية. فالصنف الأول (أي المعاينة الاحتمالية)، يُدعى كذلك لاعتماده بالكلية على مبدأ الاحتمالات الذي يسمح بحساب إمكانية ظهور العنصر من المجتمع الأصلي في المجموعة الفرعية التي هي العينة. بناء على هذا الأساس، فإن المعاينة الاحتمالية هي تلك العملية الحسابية التي تتحدد من خلالها إمكانية ظهور كل عنصر من المجتمع الأصلي ضمن العينة، و تكون هذه الإمكانية متساوية بين جميع عناصر مجتمع البحث. بتعبير آخر، أن الأسلوب الاحتمالي هو أن نعتبر (حسابيا طبعا) كل عناصر مجتمع البحث لهم نفس الفرصة في الظهور في العينة المزمع تكوينها، أي لا مجال للتعسف في انتقاء العناصر عند استخراجها من المجتمع الأصلي و ضمها إلى العينة. من أجل ذلك يتطلب الموقف ترقيفا أو قائمة لكل عنصر من عناصر مجتمع البحث. تدعى هذه القائمة في العرف المنهجي بقاعدة مجتمع البحث أو بقاعدة السبر أو الاستتار. فعلى أساس هذه القاعدة يمكننا أن نشكل عينة يكون بمقدورنا معرفة درجة تمثيلها إزاء مجتمع البحث الناتجة عنه. و يُقصد بتمثيل العينة هنا تلك السمة التي تتوفر فيها و يكون فيها جميع عناصرها مشابهة لعناصر مجتمع البحث. بمعنى آخر، لا يُسمح بنسيان و لا إهمال أي عنصر و لا يُسمح أيضا بتكراره و النتيجة في النهاية يكون مماثلا لما يُنتج عن قُرعة أو عن سحب و العينان مغمضتان أو سحب آلي لكريات من صندوق.<sup>2</sup>

أما في حالة المعاينة غير الاحتمالية، فإن حظوظ ظهور مفردة من مجتمع البحث في تشكيلة العينة يبقى غير معروف، كما تستحيل معرفة ما إذا كان لكل عنصر فرصا

<sup>1</sup> - Ibid.p.267

<sup>2</sup> - Ibid.p.268

متساوية في ذلك الظهور. إن العينة المكوّنة بهذا الأسلوب لا يمكن حساب درجة تمثيلها لمجتمع البحث بأي حال من الأحوال، غير أن هذا النوع من المعاينات لا تكون العينة الناتجة عنه ممثلة إلا نادرا ، و إن حدث فلا يقع ذلك إلا على سبيل المصادفة.

### - أنواع المعاينات الاحتمالية:

يُحصى بعض متخصصي المنهجية ثلاثة أنواع للمعاينات الاحتمالية: المعاينة العشوائية البسيطة، المعاينة الطبقية، و المعاينة العنقودية:<sup>1</sup>

- المعاينة العشوائية: هي اقتطاف من ضمن مجتمع بحث بقصد تشكيل عينة باستعمال سحب يعتمد على الحظ<sup>2</sup>. والحظ هنا لا يُقصد به الحظ المطلق، و إنما المقصود هو الحظ المتحكم فيه حسابيا. لذلك يقول علماء المنهجية في هذا الباب: يجب أن نعد إلى الحظ لا أن نعتمد على الحظ، و الفرق دقيق و مهم (on procède au hasard et non par hasard): فالحظ الأول يقصد به أن نوزع نسب الحظ في الظهور في العينة على جميع مفردات مجتمع البحث بالتساوي المطلق و المقدر رياضيا مسبقا. أما الحظ الثاني فيعني أن نأخذ عدد المفردات المكونة للعينة من مجتمع البحث بطريقة الصدفة و الاعتبار و كيفما اتفق، وهذا الأسلوب بادٍ عليه عدم العلمية و عدم الموضوعية.

- المعاينة الطبقية: هي نوع ثان من المعاينات الاحتمالية، يتم اللجوء إليها عندما يكون عناصر مجتمع البحث تتميز بخاصية أو بعدة خصائص و يحتم ذلك أخذها بعين الاعتبار. فانطلاقا من تلك الخصائص تُشكل مجموعات فرعية متجانسة (طبقات)، لأننا نفترض أن العناصر التي تتألف منها كل طبقة يكون بينها نوع من التشابه و بالتالي تظهر الطبقات متباينة فيما بينها. فإذا افترضنا أن دراسة ما تخص مدينة ما و تتطلب

<sup>1</sup>- لن نستفيض في الشرح و الأمثلة، ذلك لأنه يُفترض لدى الطلبة أنهم على دراية بتك التفاصيل. وما نقوم به هنا هو تذكير في سياق أشمل.  
<sup>2</sup>- Ibid.p.269

هذه الدراسة تشكيل عينة من سكانها تتحصر أعمارهم بين الثلاثين و الأربعين و حتمت الدراسة علينا أن نأخذ بعين الاعتبار خاصيتي العمل/البطالة، و علمنا من جهات رسمية أن نسبة العمال من هذه الفئة في تلك المدينة تبلغ 70% و نسبة البطالين منها تبلغ 30%، عندئذ و حين ما نريد أن نشكل العينة المقصودة، يجب علينا أن نحترم هذه النسب بحيث تكون، و مهما كان حجمها، مشكلة من النسب ذاتها.

- المعاينة العنقودية: في أحيين كثيرة لا نتمكن من حصر قائمة شاملة لمجموع المفردات التي ننوي أن نستخرج منها تشكيلة العينة المبتغاة. في هذه الحالة يمكننا أن نتجاوز بالانتقال إلى نوع آخر من المعاينة. نقصد هنا ما يسمى بالمعاينة العنقودية التي هي: " اقتطاف عينة من مجتمع بحث على أساس عملية سحب موسوم بالمصادفة المحسوبة أو بالحظ المراقب يهدف لانتقاء وحدات تضم كل وحدة منها عددا من العناصر المنتمية لمجتمع البحث."<sup>1</sup>

فإذا كان المطلوب مثلا إجراء دراسة على عدد من البلديات التابعة لولاية من الولايات في الوطن، و جب بداية أن نحدد عشوائيا و احتماليا عددا من الوحدات و التي ما هي إلا مجموعات فرعية من المجموعة الكلية(الولاية)، و هي هنا الدوائر. ثم من مجموع الدوائر هذه المنتقاة احتماليا، ننتقي مجددا، بأسلوب احتمالي، عدد الأفراد أو العناصر المشكلة للعينة، وهي هنا في مثالنا البلديات.

#### • أساليب السحب الاحتمالي:

عند إجراء السحب الاحتمالي في العلوم الإنسانية و الاجتماعية، يلجأ الباحثون إلى ثلاثة أساليب خاصة من أجل تشكيل عينات البحث التي يجري عليها التجريب لإثبات أو نفي الفرضيات. وتتمثل هذه في: السحب اليدوي و السحب المنتظم و السحب الآلي.

<sup>1</sup> - Ibid.p.271

- السحب اليدوي: بداية يجب أن نعيد التذكير بأن في هذا النوع من السحوبات، لا بد من أن نكون على علم بعدد العناصر المكونة لمجتمع البحث. ذلك لأنه يلزمنا أن نمسح لكل عنصر من عناصره رقما خاصا لكي يتم لاحقا إجراء عملية السحب. ففي هذا النوع من السحب، نكتب رقم كل مفردة من مفردات مجتمع البحث على قصاصة ورق، ثم نجمع الكل في وعاء، ثم نستخرج يدويا عددا من القصاصات يتفق مع عدد أفراد العينة التي ننوي تشكيلها. عادة ما يلجأ الباحثون إلى هذا النوع من السحب عندما يكون عدد أفراد مجتمع البحث محدودا، و من مميزات هذا السحب يكون عادة يسيرا و سريعا.

- السحب المنتظم: يقتضي أن نقسم أفراد مجتمع البحث إلى مجموعات متساوية ( 10-10 أو 15-15 أو 30-30..)، بشرط أن يكون عدد المجموعات المشكلة متناسبا تماما مع عدد أفراد العينة التي نريد تكوينها: فإذا كنا نريد عينة من مائة مفردة مثلا، وجب أن تكون لدينا مائة مجموعة (Paquets)، بحيث أننا إذا سحبنا مفردة واحدة من كل مجموعة حصلنا في النهاية على المائة عنصر المطلوب لأجل تكوين العينة. في هذا النوع من السحب، نستخرج في البداية عشوائيا و يدويا من المجموعة الأولى رقما و ليكن مثلا 5، و كان عدد العناصر في كل المجموعة 30، و حتى يكون السحب منتظما كما هو اسمه، فإن الرقم الموالي سوف يكون  $35(5+30)$ ، ثم الرقم الذي يليه هو  $65(5+60)$ ، ثم  $95(5+90)$  و هكذا حتى نصل بالأرقام المستخرجة إلى العدد الذي يتطلبه تشكيل العينة. مع الحرص على أن يكون الفاصل بين كل رقمين 30(في هذه الحالة).

- السحب الآلي: إن الحواسيب الآلية اليوم تمكن الباحثين من استخراج سلسلة من الأرقام العشوائية في حدود ضبط مسبق و متحكم فيه. على العموم، فإن السحب الآلي

يُعرف على أنه: " الأسلوب الاحتمالي للمعاينة الذي من خلاله نتمكن من تشكيل أرقام بطريقة عشوائية باستعمال البرمجة".<sup>1</sup>

### - أنواع المعاينات غير الاحتمالية:

لقد أثبتت التجربة لدى الباحثين بأن بعض المواضيع لا يلزم فيها أن تكون العينة المختارة ممثلة للمجتمع الأصلي. لكن و مع ذلك لا توجد وصفة جاهزة للتفرقة بين المواضيع المتطلبة للمعاينة الاحتمالية و تلك التي تتطلب معاينة غير احتمالية، و إنما يعود ذلك إلى الخبرة و سعة الاطلاع عند الباحث. و هكذا يمكننا مثلا أن نعلم إلى دراسة حالة ( مدرسة، قرية، مستشفى، جمعية، سوق، أسرة..)، كما يمكن أن نستعمل في دراسة سلوكيات ما نحو التعمق في مدلولاتها النفسية أو السوسولوجية، دون اعتبار لمسألة التمثيل مقتنعين أن هذا الموقف لا يضر بمصادقية النتائج الممكن التوصل إليها. كما أنه في أحيان كثير نكون بصدد مواضيع لا نتمكن من معرفة حدود مجتمعاتها الأصلية، أو يكون لدينا جزء من هذا المجتمع دون الإحاطة بالقاعدة الكلية له، أو نكون محكومين بوقت وجيز، أو موارد مالية محدودة.. في هذه الحالات و غيرها يمكننا اللجوء إلى المعاينة غير الاحتمالية. أما النتائج المترتبة على هذا النوع من المعاينة تبقى مقبولة و توصف بالعلمية، رغم أننا لا يمكننا تقدير درجة التمثيل الحقيقي بالنسبة لمجتمع البحث.

تتلخص التقنيات غير الاحتمالية في ثلاثة أنواع كالتالي:

- العينة الصدفية: توصف بأنها العينة الأكثر بساطة لكن في الوقت عينه قد تكون النتائج المبنية عليها مضللة غالبا إذا لم تُتخذ مواقف واعية إزاءها. و عليه لا يمكن اعتمادها إلا إذا لم نجد عنها بديلا. فكيف إذن يمكننا تشكيل عينة صدفية؟ ببساطة

<sup>1</sup> - Ibid.P274

يتكون هذا النوع من العينات من الوحدات التي يُصادفها الباحث دون استعمال حسابات معينة. فإذا كان الباحث بصدد دراسة متعلقة بمعرفة خلفيات الصراع بين العمال و الإدارة مثلا، فإنه حينئذ يمكنه أن يترصد لمجموعة منهم بعد خروجهم من مطعم المؤسسة في فترة استراحة لهم في مقهى مثلا. فمن هؤلاء يشكل أفراد عينته دون اعتبار لحسابات أو احتمالات، لكن مع التأكيد على موقف صارم مزدوج: هو أن هذا النمط من العينات قد اقتضته مصلحة البحث من جهة و من أخرى لم يكن في إمكاننا اللجوء إلى عينة أولى منه و أجدر. و مع هذا لا يمكننا أن نقدر حجم الخطأ، لأننا لا نعرف عدد الأفراد المقصيين من العينة.

- العينة النمطية: هي تلك العينة التي تتشكل عندما نقطف من مجتمع البحث الأفراد الذين يُعتبرون نماذج له. فإذا كنا مثلا نجري بحثا متعلقا بأثر المطالعة على التفوق الدراسي لدى الطلبة، فإنه يجدر بنا أن نتوجه إلى الأفراد الذين يرتادون المكتبات و يقتنون الكتب و المجالات و ليس كل الطلبة. إذا أردنا مثلا أن ننجز بحثا حول طبيعة الإيديولوجية السائدة في حزب سياسي، فإنه يمكننا أن نتتبع عددا محددا من بياناته الصادرة عنه منذ تأسيسه و التي كانت موجهة ضد أحزاب أو جمعيات أخرى تخالفه طرحه العقدي. تكون عندئذ هذه البيانات بالذات عناصر نمطية أي مثالية قد انتقيناها من مجموع البيانات المعلنة منه التي تخص هذا الجانب (جانب الإيديولوجيا) و المسماة منهجيا بمجتمع البحث. في هذه الحالة لا يسع الباحث إلا أن يتمنى أن تكون العناصر المختارة لتشكيل العينة تتمتع بالخصائص النمطية المميزة لمجتمع البحث، و أن أخطاء الانتقاء سوف تُختزل تلقائيا. بمعنى أن الباحث ليس له أي ضمانة حسابية دقيقة و حاسمة و موضوعية. لكن و مع هذا فإن المحاكمة العلمية للبحث سوف تتجه إلى مدى قدرة الباحث على احترامه للخصائص النمطية الواجب توفرها في عناصر العينة و حسب.

- العينة الحصصية: يُعتمد في تشكيل العينة الحصصية على بعض الخصائص المميزة لمجتمع البحث. فاعتمادها يقتضي أن تكون بحوزتنا معطيات عددية. فإذا كنا بصدد دراسة ظاهرة في مؤسسة اقتصادية مثلا، و كنا نعلم نسبيتي العمال و العاملات فيها، و جب حينئذ أن نراعي هاتين النسبتين في تكوين العينة. فإذا كانت العاملات تمثلن 23% مثلا و العمال يمثلون 77% من مجتمع البحث و جب أن يظهر هذا التمثيل في العينة الحصصية لدينا. فلنفترض أن هذه المؤسسة تضم 300 عامل و عاملة بالنسب المذكورة أعلاه، و نريد أن نقطف عينة من (80) عنصرا، فباحترام النسب التمثيلية لكلا الجنسين يكون لدينا حوالي 18 عاملة و 62 عاملا و بذلك نكون قد احترمنا حصة كل طرف.

تجدد الإشارة هنا إلى أن العينة غير الاحتمالية الحصصية تشبه كثيرا العينة الاحتمالية الطباقية، غير أنه في النوع الأول لا نلجأ إلى القرعة. و لذا لا يمكننا هنا أن نحسب و نضبط درجة التمثيلية للعينة المشكلة على هذا النحو.

• أساليب السحب غير الاحتمالي:

يُعدُّ علماء المنهجية عادة خمسة أنواع من السحوبات غير الاحتمالية. سنكتفي في هذا المقام بذكرها إجمالاً دون تفاصيل، ذلك لأنها كانت بالتأكيد مواضيع دراسية للطالب في السنوات السابقة.

- السحب المغمض: هو السحب الذي يُكتفى فيه بالاعتداد بالعناصر الأولى التي تحضر بغض النظر عن الخصائص المتوفرة فيها. و قد يتساءل الطالب لماذا نغامر بالسمعة العلمية للبحث و نقدم على هذا النوع من المعاينة؟ من أجل ذلك نقول أن شرط اللجوء إلى ذلك هو عدم مقدرتنا على خوض أي نوع من المعاينات الأخرى الأكثر مصداقية. فالظروف و الملابس الموضوعية هي ما حتمه.

-السحب الموجه: هذا النوع يكون أكثر دقة من سابقه. و عليه يتم وفقه اختيار عناصر يُقدر أنها تنتمي بالضرورة إلى مجتمع البحث المستهدف بالدراسة. فمثلا إذا كنا بصدد بحث يخص ظاهرة الاحتجاجات العمالية، فإننا حينئذ نتوجه إلى إحدى مقاهي المدينة مثلا نعتقد أن العناصر النقابية تجتمع بها عادة. عندها يكون سحبنا للعناصر الممثلة للعينة موجهها.

- سحب المتطوعين: هذا النوع من السحب يشكل لنا عينة من العناصر التي تقبل التعاون معنا من دون أن نعرف مدى تمثيل أي منها لمجتمع البحث. و عليه يبقى لنا فقط التمني بأن لا يبعد هذا الانتقاء عن خصائص مجتمع البحث المستهدف.

- سحب الخبرة: عندما نكون بصدد دراسة مجتمع بحث لا يمكننا الإحاطة به، فيمكننا اللجوء إلى عناصر خبيرة تمكننا من الوصول إلى العناصر المرغوبة. فإذا كنا مثلا نريد تشكيل عينة من أطفال داخل مركز إعادة التأهيل، لكن لا يمكننا التواصل مباشرة مع هؤلاء، فإنه يلزمنا حينئذ أن نتصل بأحد المربين ليكون الواسطة بيننا و بينهم.

- سحب كرة الثلج: نلجأ إلى هذا النوع عندما نكون لا نعرف سوى أفرادا قليلين من مجتمع البحث، فعندئذ يكون هؤلاء هم من يدلنا على الآخرين. فإذا كنا نعتزم إجراء بحث

حول تعاطي المخدرات لكن لا نعرف سوى فردا واحدا منهم أو اثنين، فإنه يتعين علينا أن نستعين به أو بهما في استكمال بقية تشكيلة عناصر العينة.<sup>1</sup>

### - تقنيات جمع المعطيات الميدانية:

نتحول الآن إلى نوع آخر من التقنيات المستخدمة في جمع المعلومات الميدانية المتعلقة بالموضوع محل البحث. بهذا الخصوص لوحظ أن الطلبة كثيرا ما يقعون في إرباك شديد و هم يخوضون هذه المرحلة الحاسمة. من أجل تجاوز هذا الغموض السائد لدى الطلبة، سنعمد إلى التبسيط، مستعملين أمثلة حية لتقريب الإجراءات الواجبة في هذا الصدد.

من أجل ذلك تجب العودة إلى نموذج التحليل أو ما يُعرف بالفرضية أو جملة الفرضيات المرصودة لحل الإشكال المطروح. بداية على الطالب أن يتقيد بجملة من الخطوات التقنية التي تُسمى إجمالاً بـ "العملياتية" (Opérationnalisation). تقتضي هذه العملية أن يحدد الباحث المتغيرات التي تعطي معنى للفرضية أو الفرضيات. كما يتوجب عليه أن يفرق بدقة بين المتغير المستقل و المتغير التابع و الوسيط إن وجد (تجب العودة إلى أنواع الفرضيات من حيث عدد المتغيرات المتضمن فيها). كما يجب الحذر الشديد مما يُسمى بالفرضيات الدائرية (Hypothèse circulaire)، كأن نفترض مثلا أن العنف داخل الأسرة يتسبب في التفكك الأسري، في حين أنه بالإمكان تماما أن يكون التفكك الأسري هو من يتسبب في العنف الأسري. ففي هكذا حالات، و قبل أن يشرع الطالب في إجراءات العملياتية، يجب عليه أن يستوثق من هذه الأمور كلها. بعد هذه الملاحظات المقتضية، تجدر بنا العودة إلى صلب موضوعنا و هو تقنيات جمع المعطيات، و لنبدأ بتقنية الملاحظة.

<sup>1</sup> - Ibid.p.275

## • تقنية الملاحظة:

على الباحث في علم الاجتماع إن هو أراد أن يكون ناجحا في أعماله البحثية، أن يكون متصفا بحس مرهف و انتباه ثاقب لما يجري حوله من الحياة الاجتماعية عامة و ما يجري مرتبطا ببحثه بوجه خاص. فالملاحظة الدقيقة و الواعية للحياة الاجتماعية عموما يمكن أن تفيدنا في انتقاء مواضيع جادة ذات أهمية أكاديمية و تطبيقية بالغة. من جهة أخرى يمكن لهذه الملاحظة عينها أن تساعدنا في إيجاد فرضيات لا يمكن العثور عليها في مجالات أخرى.

لكن الملاحظة التي نعنيها هنا هي تقنية يستعملها الباحثون قصد جمع معلومات محددة تمكن في النهاية من اختبار الفرضية أو الفرضيات. من أجل ذلك و حتى تكون هذه الوسيلة تستحق صفة التقنية العلمية، و يجب أن تُعد بعناية. لذلك يلجأ مستخدموها إلى إعداد ما يُسمى منهجيا " إطار الملاحظة ".

فإطار المقابلة هذا ما هو إلا أداة جمع المعطيات الخاصة بتقنية " الملاحظة ". ذلك لأنه لا يمكننا الذهاب إلى ميدان جمع المعلومات دون أن نكون قد عرفنا مسبقا الفرق بين ما الذي يجب ملاحظته و تسجيله و الذي يجب إهماله، و كل ذلك بدلالة سياق الفرضيات بطبيعة الحال و بدلالة ما تسفر عنه إجراءات العملياتية ( تفكيك المفاهيم إلى أبعاد و الأبعاد إلى مؤشرات ). زيادة على هذا، يوصي علماء المنهجية الباحثين بأن يطلعوا على ميدان الملاحظة قبل إجراءها فعليا، قصد معرفة خفايا و تفاصيل الوقائع الجارية فيه، تجنبنا للمفاجآت و تأقلا مع المحيط. و يستحسن أن يكون هذا الإطلاع محكوما بالتساؤلات التالية:

• ما هي خصوصيات الموقع المراد ملاحظته؟

• من هم الأفراد الذين يتطلب البحث لقاءهم؟

- لماذا يتواجد هؤلاء الأفراد بالذات في هذه الأماكن المحددة؟
- ما هي الأحداث الممكنة مشاهدتها في موقع جمع المعطيات؟ ( توقع الأحداث الممكنة لتفادي الاضطرابات و التشويشات خلال عملية الملاحظة).
- ما هي الأشياء التي تتكرر و منذ متى؟ ( لأن الوقائع التي تتكرر تكون لها عادة دلالات إزاء المعلومات المراد جمعها و بالتالي إزاء الفرضيات).
- ما هي العناصر الأخرى الواجب الانتباه إليها و التي قد تكون لها فائدة للبحث؟
- ما هي الأوقات المفضلة للملاحظة<sup>1</sup>؟

و يحسن بالطالب أن يكون ملماً بأنواع الملاحظات المعتمدة عند الباحثين من أجل أن ينتقي منها ما يتناسب مع مشكلة بحثه، فتوسع الاختيارات أمامه يساعد في تدقيق النتائج البحثية. من أجل ذلك يجري الحديث عن الملاحظة المفتوحة مقابل الملاحظة المستترة، و الملاحظة بالمشاركة مقابل غير المشاركة، و الملاحظة المنهجية مقابل غير المنهجية، و الملاحظة في المواقف الطبيعية مقابل المواقف المصطنعة، و الملاحظة الذاتية مقابل ملاحظة الآخر.<sup>2</sup>

#### • تقنية المقابلة:

<sup>1</sup> - Ibid. p208.

Voire aussi. Stéphane Beau ; Florence Weber. Guide de l'enquête de terrain. Ed. La Découverte. Paris XII<sup>e</sup>. 1997. P.143

<sup>2</sup> - عبد القادر عرابي. المناهج الكيفية في العلوم الاجتماعية. دار الفكر. دمشق. 2007. ص.197.

المقابلة تقنية معتمدة لدى الباحثين على نطاق واسعة. و تُستخدم عادة في أغلب الأحيان ضمن البحوث الكيفية التي ترمي إلى الغوص في ثنايا دلالات العبارات أو الكلمات أو الحركات و السلوكيات..

من أجل بناء وثيقة المقابلة يجدر بالطالب أن يتبع خطوات محسوبة سلفا، وهي متمثلة في جملة من الأسئلة:

- ما هو مصدر الأسئلة؟ نستقي الأسئلة الرئيسية و الفرعية التي تُكوّن وثيقة المقابلة، من العملية التحليلية التي تمس جميع المفاهيم الواردة في مشكلة البحث. فالأسئلة الرئيسية تتولد عادة من الأبعاد، بينما الأسئلة الفرعية من المؤشرات .

أما بخصوص طبيعة السؤال في حالة ما إذا استقر رأينا على المقابلة، فينبغي عندئذ أن تكون الأسئلة بنوعيتها ( الرئيسية و الفرعية ) مفتوحة. و عليه، فصياغتها يجب أن تضمن للمبحث حرية كاملة في الإدلاء بأية إجابة يريد لها. يقول خبراء المنهجية بأن الحرص على هذه الحرية يوفر للباحث مراده من التقنية ألا و هو الغوص في ثنايا الدلالات الكلامية و استخراج الثراء المعرفي المخبوء الذي لا يمكن الاطلاع عليه إلا بتحليل معطيات هذه التقنية بالذات. كما يؤكد هؤلاء الخبراء أيضا على تجنب الباحث الأسئلة التي تعطي الانطباع بأنها تستحق مجرد إجابات مقتضبة أو موجهة. فالاختصار في الإجابات يُفوّت فرصة الاطلاع على المعطيات الوفيرة المحتملة لدى المبحوث، و أما توجيهه إلى إجابة معينة من خلال السؤال فقد يحرم الباحث من معطيات ذات قيمة بالنسبة للفرضيات. من أجل التمثيل لذلك نورد هذا السؤال: عندما تحل المناسبات الانتخابية، هل تذهب إلى التصويت كما يفعل المواطنون الصالحون؟ ففي هذا السؤال مثلا، فإن الباحث يكون قد حشر المبحوث في الزاوية، إذ قد يجد هذا الأخير نفسه مضطرا للرد بالإيجاب وإلا لم يكن مواطنا جيدا في نظر محاوره!

في السياق نفسه، يوصي علماء المنهجية ببعض الالتزامات عند إنجاز دليل المقابلة يمكن إيجازها في نقاط تالية:

- الأسئلة الرئيسية تكون دائما متصفة بالعموم و تتناول دائما موضوعا جديدا، في حين تكون الفرعية دائما تفصيلية لكل موضوع مطروق.

- عند الانتقال من موضوع إلى آخر يُحذ اعتماد عبارات تضمن سلاسته مثل: " و الآن إذا سمحت، تعالى نتكلم عن... "

- دائما ننتقل من المواضيع غير الشخصية إلى الشخصية قدر الإمكان مستهدفين عدم إحراج المبحوث.

- إذا كانت بعض الأسئلة تتطلب تفكيراً معمقا، يجب أن تتقدمها أسئلة ممهدة، حتى لا يشعر المبحوث بالإحباط و يقدر جدية المقابلة.

- لا نلجأ إلى الأسئلة الفرعية إلا إذا كانت الإجابات على السؤال الرئيس غير مكتمل.

- يجب تأخير الأسئلة المتعلقة بالبيانات الشخصية (السن، الحالة المدنية، المهنة...)، لأن تقديم ذلك من شأنه أن يؤثر على عموم الإجابات.

**مثال لجزء من دليل مقابلة:** ( للعلم يجب في المقابلات أن نفتحها بمقدمة تحتفي بالمبحوث و تبين هدف المقابلة)

أسئلة هذا الدليل موجهة إلى طفل ضحية طلاق.

إذا تحدثنا بداية عن أبويك:

- 1 كيف هي أحوالهما منذ أن تفرقا؟
    - 1 1 كيف هي أحوال أمك؟
    - 1 2 كيف هي أحوال أبيك؟
    - 1 3 هل ترى أن الحياة سهلة لأحد منهما؟
    - 1 4 هل ترى أن الحياة صعبة لأحد منهما؟
  - 2 -كيف كانت أحوالهما حينما كانا يعيشان مع بعض؟
    - 2-1 كيف كان يتصرف أبوك؟
    - 2-2 كيف كانت تتصرف أمك؟
    - 2-3 هل كانت الحياة سهلة لأحد منهما؟
    - 2-4 هل كانت الحياة صعبة لأحد منهما؟
- اسمح لي أن ننتقل للحديث عنك:
- 3 -ما هي وضعيتك الحالية بالنسبة لعائلتك؟
    - 3-1 ما هي علاقاتك بأمك؟
    - 3-2 ما هي علاقاتك بأبيك؟
    - 3-3 ما هي علاقاتك ببقية أفراد عائلتك؟
  - 4 كيف كانت وضعيتك قبل الطلاق؟
    - 4-1 كيف كانت علاقاتك مع أمك؟
    - 4-2 كيف كانت علاقاتك مع أبيك؟

3-4 كيف كانت علاقتك مع بقية أفراد الأسرة؟

و الآن لنتحدث عن الطلاق في المجتمع بصفة عامة:

5 -ما رأيك في هذه الظاهرة؟

1-5 كيف سوف يتصرف الجيل القادم حيال هذه الظاهرة بحسب رأيك؟

2-5 هل تعتبر أن السماح للأزواج بالطلاق أمر جيد أم سيء؟

[...]

شكرا على قبولك الإجابة على أسئلتنا!

• تقنية الاستمارة:

الاستمارة تقنية تقتضي أن يطرح الباحث لمجموعة من المبحوثين جملة من الأسئلة. و تكون العينة المشكلة في إطار هذه التقنية ممثلة لمجتمع البحث عادة. أما الأسئلة فتستهدف جوانب متنوعة من الحياة الاجتماعية: مهنية، أسرية، تربوية، معرفية آراء و مواقف رهانات و سلوكيات..

لكن مما يجب على الطالب أن يعلمه هو استيضاح الفرق بين مجرد صبر الآراء و بين الاستمارة، إذ أن هذه الأخيرة توضع بعناية على أساس نتائج العمليات المبينة أعلاه لتضع في النهاية الفرضيات النظرية مع تقاطعاتها المحتملة موضع الاختبار، بينما تكون غاية صبر الآراء أهدافا إحصائية أو وصفية على أكثر تقدير. ثم إن الاستمارة و نظرا للعدد المرتفع للمبحوثين وكذا الأسئلة الكثرة الواجب طرحها ثم معالجتها كميًا، فإنه من العادة أن تكون الأجوبة معدة مسبقا و لا يسع المبحوث سوى الاختيار من بينها و هذا ما يسمى بالأسئلة المغلقة.

إن تقنية الاستمارة لها ما يميزها عن تقنية المقابلة، خاصة فيما يتعلق بطبيعة الأسئلة المطروحة على المبحوثين: فإذا كانت أسئلة المقابلة عامة و غير محددة بدقة استجاباً للثراء المعلوماتي، و لا يلجأ الباحث للتدقيق فيها إلا عندما يتعلق الأمر بمعلومة صدرت عن المبحوث ذات قيمة معتبرة بالنسبة للفرضيات أو لهدف البحث، فإن أسئلة الاستمارة تكون عادة دقيقة و مفصلة و ذات أجوبة مقترحة على المبحوث. كما أنه من ميزاتهما التراوح بين الانغلاق التام في أغلبها و الانفتاح في بعضها. على العموم فإن الباحث بالمقابلة ينتظر الجديد من المبحوث إزاء بحثه و لا يتدخل في التوجيه إلا أحيانا قليلة و من بعيد ليضمن عدم الخروج على موضوع البحث. فهو يقتصر المعطيات المثارة أثناء مجريات المقابلة و لا يستوقف الباحث المبحوث إلا حين ترد معلومات لها دلالات هامة. بجملة واحدة، فإن المقابلة تستهدف الثراء المعرفي المحتمل من الموضوع، بينما الاستمارة توجه المبحوث بطريقة أكثر صرامة لا تترك مجالا واسعا من الحرية في التعبير. تتفق الاستمارة مع المقابلة في إمكانية احتواء الأولى بعض الأسئلة المفتوحة التي تخضع في الأخير لمعالجات تقنية تحليل المحتوى التي تخضع لها معطيات المقابلات أساسا. كما تتفق الاستمارة مع بقية التقنيات في كون الأسئلة التي تحويها تكون دائما ناتجة عن الإجراءات العملية التي تمكن من تفكيك المفاهيم إلى أبعاد و منها إلى مؤشرات.